ابن حزم الأندلسى

الأخلاق والسِّير في مداواة النفوس

تحقيق وتقديم وتعليق

دكتور الطاهر أحمد مكى



دار المعارف

ابن حزم الأندلسي

الأخلاق والسِّيَر
في مداواة النفوس

تحقيقه وتقديمه وتعليقه
دكتور الطاهر أحمد مكي
أستاذ ورئيس قسم الأدب
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الأولى
١٩٨١



● الطبعة الأولى :
ذو الحجة ١٤٠١ هـ
أكتوبر ١٩٨١ م

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى الذين اختاروا الطريق الأصعب ...

... طريقَ ابن حزم !

المحقق

كلمة فى البدء

منذ خمس سنوات قدّمت كتاب « **طوق الحمامة** » لابن حزم ، محققا لأول مرّة على نحو علمى ، بقدر ما تسمح به مخطوطة وحيدة لا نملك إلاّ مصوّرها ، وكانت المتاعب كثيرة ، والجهد الذى بُذِل مضاعفا ، ولا يعرف الشوق إلاّ من يكابده ، ولكن إقبال القارئ العربى عليها فاق كل تصوّر ، فصدرت طبعته الثالثة منذ عام ، ووجدت فى تقديره العزاء ، وفى قدرته على التمييز بين الغث والثمين سنداً أواجه به مصاعب الحياة بين السطور والكلمات والصفحات .

وها أنذا أتقدم بمغامرتى العلمية مع ابن حزم خطوة أخرى إلى الأمام ، فأقدم رسالته الممتازة « **الأخلاق والسير فى مداواة النفوس** » ، تضم اعترافات فقيه عظيم ، وخواطر مفكر جليل ، وأفكار فيلسوف عالم ، وأنت معها ، وبإزائها ، لا تقع عينك على كلمات ، ولا يستقبل عقلك جملاً ، وإنما تمسك بتجارب حيّة لرجل خبر الدنيا ، وتكشّفت له أسرار الحياة ، خلال صفحات تشع ذكاء وجلالاً ، وتعبق صدقاً وإخلاصاً ، وتغمرك بدفئها وأنسها ، وستجد فيها صورا دقيقة أمينة لجوانب من حياتك ، وللكثير مما يجرى حولك ، فكأن الرجل يعيش عصرنا ، ويتحدث عن أيامنا .

وبعد ، فلن أتحدث عن روعة الرسالة بأكثر مما تتحدث هى عن نفسها ، وأدع القارئ يواجهها بنفسه ، بعد أن ضبطت نصها ، وفسّرت كلماتها ، وعلّقت على بعض أفكارها ، بما يضئ له السبيل ، ويذلل الطريق ، وقدّمت لها بحديث عن حياة المؤلف الصاخبة المضطربة ، اعتمدت فيه على دراسة سابقة لى نُشِرت من

قبل ، ففيها عون كبير على تقييم رسالته ، وفهم إشاراته ، وأتبعته بحديث عن الرسالة توثيقا وتأريخاً .

والله أسأل : أن ينفع بها ، وأن يعين على تحقيق بقية تراث ابن حزم ، فى صورة تسعده روحا ، ونزهو بها أمةً ، فإن جاءت على ما نرجو لها فذلك ما حاولته ، وإن كانت دون ما يطمع القارىء ، فليعذرنا ، فما أعظم ما يلاقى الباحث من عناء .

الجمعة ٢٩ ربيع الآخر ١٤٠١ هـ
٦ مارس ١٩٨١ م

٣٩ شارع المراغى – العجوزة
القاهرة الكبرى

الطاهر أحمد مكى
ص . ب ١٩٠٤
البريد العمومى
القاهرة



تمثال من البرُنْز بالحجم الطبيعى لابن حزم القرطبى ، بلباس العلماء ، من صنع المثّال الإسبانى أماديو رويث اولموس Amadeo Ruiz Olmos أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣ ، أمام باب اشبيلية ، أو العطارين ، وكان يؤدى إلى بلاط مغيث ، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم ... من هنا كان طريقه اليومى إلى المسجد الجامع : طالباً ، وأستاذاً أو للصلاة .

وقد كتب على قاعدته بالخط الكوفى : « بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة أبى محمد على بن حزم القرطبى ، تقدم مدينة قرطبة أعظم آيات التقدير لمن تعتبره علماً من أعلام ثقافتها » .

● المؤلف :

ابن حزم

شاهد عصر

لا أحد يختار اللحظة التى يولد فيها !.

وقُدِّر لابن حزم أن يجئ إلى الحياة فى أشد لحظات الأندلس قساوة ومأساة وحسما. شهد شمس الخلافة تنحدر نحو المغيب، وقاوم ما استطاع لكى يُبقى عليها، ورآها تتناثر مزعاً، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة، يحكمها أمراء صغار، سوف يدخلون التاريخ تحت اسم: «ملوك الطوائف». وعاصر فوضى هؤلاء الملوك وصغارهم، ورأى دولهم تنتحر فى بطء، وتسرع نحو الهاوية فى بلادة. وعبثا نجد جوابا لسؤال يتردد فى الخاطر أحيانا: ماذا لو عاش ابن حزم فى غير هذه الأعوام، لو جاء قبلها بقرن، أو تأخر به القدوم بعدها بزمن؟. المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهداً، ومشاركته فيها مؤثرا، جعلت منه قمة الفكر الإنسانى فى مطلع القرن الحادى عشر، فى الشرق والغرب، فى العالمين الإسلامى والمسيحى على السواء. كان سياسياً ورجل دولة، شاعراً وكاتباً ومؤرخاً، مفكراً وفيلسوفاً، وفقيهاً جَدِلاً لَدِدَ الخصومة، عنيف الحوار.

ولن أمضى مع حياة ابن حزم تفصيلا، لقد درسها فى عمق ورزانة وتأن المستشرق الإسبانى، العالم الفيلسوف **ميجيل أسين بلاثيوس**، فى كتابه: «**ابن حزم القرطبى**»، وقد أنهيت نقله إلى العربية، وسأدفع به إلى المطبعة قريبا، وفيه

الغناء ، كل الغناء ، لمن يطلب المزيد . وسأكتفى هنا بالملامح البارزة ، التى تعيننا على فهم إبداع «كتاب الأخلاق والسير» ومحتواه ، وإشاراته .

● أسرة من المولدين :

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تماما ، وأشدها احتمالاً ، وهو أمر غير مؤكد . أنه ينتسب فى أسرة من المولَّدين ، أى أنه ينحدر أصلاً من الأجناس التى وجدها المسلمون لحظة الفتح . ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة ، هل هى لاتينية أوقوطية ، أو من بقية الأجناس التى مرّت بشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتيين . ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التى كان عليها أسلافه ، أهى الكاثوليكية أم ديانات أخرى ، أم الوثنية ، وكان لها عبّاد فى القرى النائية لحظة الفتح الإسلامى .

وليس للأسرة تاريخ عريق فى الإسلام ، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح ، أو ما تلاها من أعوام . كانت كملايين آخرين ، من صغار الفلاحين فى القرى النائية ، تمضى حياتها هينة متشابة ، بلا آلام ولا أحلام ولا أمجاد . تعيش من الزراعة ، على أرض لها ، فى ضيعة صغيرة ، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Mont lisam ، وأخذت فى الإسبانية المعاصرة صورة منتيخر Montijar ، أو بدون الراء الأخيرة ، فى مقاطعة ولبة Huelva ، جنوب غربى الأندلس .

ولم تكن الحياة فى هذه المنطقة سهلة ولا ميسرة ، ولاتزال حتى يومنا ، محدودة الموارد فى الزراعة ، قليلة الصناعة ، لا يكاد إنتاجها من الحبوب يكفى فلاحيها ، على حين تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدماً ، وتصبح الحياة فيها أمنية ، تستهوى عامة الناس وبسطائهم ، وتداعب آمال كل طامح ، وبخاصة أحلام أسرة ترغب ،

وتعمل جاهدة ، فى تحسين واقعها الاقتصادى ، فترك **سعيد** ، جد ابن حزم صاحبنا ، ولبة حيث يقيم ، وجاء إلى العاصمة . ولا نملك معلومات وافية عن حياة سعيد فى قرطبة ، والقليل الذى وصلنا منها غامض ، ومتناقض ، ولدينا أخبار وفيرة عن ابنه **أحمد** ، والد **أبى محمد** على موضع درسنا .

كان **أحمد** ، فيما يبدو ، فطناً ودوداً ، مثقفاً أديباً ، مستقيماً عاقلاً ، مقتصداً وماهراً فى شئون المال ، بارعاً فى مواجهة المواقف السياسية المتناقضة ، ذا طموح يقظ ، قادراً على كبح جماحه عند الضرورة ، مسالماً دائماً ، ومسلّحاً بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له فى مناصب الدولة نصيب . وفى هذا الوقت كانت منتديات **قرطبة** تتهامس حديث نجم يمضى صعداً بلا توقف ، فتى من أبناء الأقاليم يدعى **المنصور بن أبى عامر** . كان مثل **سعيد ابن حزم** ريفياً ، هبط قرطبة ذات يوم ، ضائعاً مغموراً يبحث عن المجد ، ويؤمل أن يلقاه فى عاصمة الغرب الإسلامى . ولكنه على العكس من سعيد ، ينتمى فى أسرة عربية عريقة ، ولو أن معلوماتنا أيضا عن أيامه الأولى قليلة وغامضة .

ولم يكن **المنصور** فرداً فى طموحه وصعوده . كثيرون كانوا يرقبونه ، وعلى نية أن يتبعوه ، وقد بدأ دم جديد يتدفق فى شرايين الدولة ، فأتى على الأسوار العالية ، التى أقامها أبناء البيوتات العريقة ، وكانت المناصب الكبرى وقفاً عليهم ، سنة جارية ، وتقليداً محترماً . وهكذا وجد **أحمد** طريقه إلى مناصب الدولة ، ربما لأنه كان مولى لبنى أمية ، وهذه تحسب له ، وأكيداً لأنه أشاع الثقة فيمن حوله ، بقدرته وحنكته . ومع البداية واصل سيره قدما ، ونجهل خطواته الأولى ، ولابد أنه كان ذا دهاء سياسى رفيع ، ليظل وفياً **لهشام المؤيد** الخليفة ، وموضع ثقته ورعايته ، دون أن يثير فى أعماق **المنصور** ، وكان الحاكم الفعلى أو فى طريقه ليصبح

كذلك ، روح الشك والخوف ، بل حاول المنصور أن يربحه ، وأن يضمه إلى جماعته .

وقد ترك **أحمد** منزله ، لأول مرة ، فى **بلاط مغيث** ، فى الجانب الغربى من قرطبة ، إلى « **منية المغيرة** » فى الجانب الشرقى من المدينة ، مكان قريب من الزاهرة ، المدينة التى بناها **المنصور** لتكون مقراً لحكمه ، وعظمت فيه ثقة المنصور ، فجعل منه وزيره ، يقول **ابن الأبار** فى كتابه « **إعتاب الكتاب** » ، نقلا عن ابن حيان : إن المنصور « استوزره قبل سائر أصحابه ، فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (= ٩٩١م) فى خلافة هشام المؤيد بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة ، وصيّر فى يده خاتمه » .

تلك هى الأسرة التى ولد بينها ابن حزم ، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة ، طبقة كبار الموظفين ، تعيش فى ترف ورفاهية ، وفى مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبى ، ويضغط عليها فى طيات النفس أمران غير ظاهرين : تواضع الأصل ، ولا اسلامية السلف ، وكان عليها أن تتحرر منهما ، وأن تتغلب عليهما ، وفى أشجار النسب متسع ، وهو طريق سلكه قبلهم ، ومن بعد ، آخرون كثيرون . والأمر الثانى : الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولى نعمته ، والمنصور راعيه .

● **طفولة بين الحريم :**

ولد أبو محمد ، على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فى قرطبة ، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤هـ =٧ من نوفمبر ٩٩٤م . وطبقاً لما يرويه ابن حزم نفسه ، فى مواضع مختلفة من كتابه « طوق الحمامة » ، صريحاً أحياناً ، ومواربا أحياناً أخرى ، نعرف أنه أمضى طفولة رخية وضعيفة وكسولة ، طفولة ابن وزير ، يشب فى أبهاء القصر ، وتحت رعاية الخدم ، وبين مناغاة النساء ، من القيان

والجوارى والإماء ، على أيديهن نشأ ، ومعهن تربّى ؛ ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حدّ الشباب ، وكنّ حاضناته وأستاذاته ، علّمنه القرآن ، وروّينه الشعر ، ودرّبنه فى الخط ، ومنهن تعلّم أشياء أخرى ليست أقل نفعاً ، ولكنها مؤذية فى سن الطفولة . لقد أظهرنه فى سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات القصور ، وحيل النساء . فنشأ صبيا سريع التأثر ، كثير المرض ، ملحوظ العصبية ، متوقّد الذكاء ، مطبوعاً على الغيرة ، سيئ الظن بالمرأة وقد خبرها عن قرب ، وأشرف من أسبابها على غير قليل .

أقصى ما عرف من العالم فى صباه شوارع « منية المغيرة » ، حى كبار موظفى البلاط ، الملاصق لقصر الزاهرة ، فى نزهات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة ، ولم يكن فيها وحيدا ، وربما قادته قدماه إلى قصر المنصور نفسه ، وكان ابن أبى عامر ودوداً جدًّا مع الأطفال ، يهش لرؤيتهم ويسعد بمحضرهم . ولم يشر ابن حزم إلى شىء من هذا فى مؤلفاته ، ولكن صديقه وتوأم روحه ، أبو عامر بن شُهَيْد ، قصّ علينا بعض ما حدث له ، فى رسالة جميلة ، كتبها فيما بعد رجلا ، إلى المؤتمن عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، وقد أصبح أمير بلنسية ، وأورد لنا ابن بسام فقرات طوالا منها فى كتابه « الذخيرة » . يتحدث ابن شهيد عن صلته بالمنصور طفلا فيقول : « إنى نشأت فى حجره ، وربّيتُ فى قصره ، وارتضعتُ ثَدْىَ كرائمه ، واعتجرت رداء مكارمه ، واغتذيت من فيه ، أكلاً زَقّينه ، وماءً علّنيه ، فصرتُ أفراخ نعمائه الحمر الحواصل ، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل » .

وكان ابن شهيد نِدًّا لابن حزم ، ويكبره بعامين فحسب ، وينتمى فى اسرة عربية عريقة ، وكان أبواهما موظفين كبيرين ، وزيرين فى قصر الحجابة ، وعلى نفس المسافة من المنصور ، فليس مجازفة إذن أن نتصور أن ابن حزم ، كابن

شهيد ، كان يتردد على قصر الحجابة ، ويحظى بجنان المنصور ، والطريق إليه أيسر من الوصول إلى الخليفة الوقور المحتضر ، وقد دفنته المنصور حياً .

● **ثوار وعباد جهال :**

فى عام ٣٩٢ هـ=١٠٠٢ م ، تحققت رغبة المنصور العظيم أن يموت فى ساحة الوغى ، وأن يلقى الله مجاهدا ، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة ، وهى الحملة الخمسون من حملاته العسكرية ، وطبقاً لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخير ، فى مدينة سالم ، ومعه الغبار الذى تجمّع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، وعلى قبره هذا الشاهد :

آثارُه تُنبيك عن أخباره حتى كأنّك بالعيان تراهُ
تا اللهِ لا يأتى الزمانُ بمثله أبداً ولا يحمى الثغورَ سواه

وتولى الحجابة بعده ابنه **عبد الملك المظفر** ، ومعه أمّلت الأندلس خيراً كثيراً ، وبخاصة فى أيامه الأولى ، وكان **ابن حزم** فى الثامنة من عمره ، يطل على العالم قلقاً ، ويشق طريقه إلى الحياة فى خطى محسوبة ، وتعكس مواقفه نضجاً مبكرا . فى بيتهم بدأ غرامياته الأولى مع جواريهم ، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب ، ولقى كبار الأساتذة فى قرطبة ، يجيئون إليه أو يذهب إليهم ، أساتذة يمثلون كل الأفكار ، من أشد الناس ورعاً وتصوفاً وزهداً ، إلى أكثرهم جرأة وتحرراً وتمرداً . وخلال ذلك بدأ ينمى صداقاته ، مع صبيان وفتيان من سنه ، صداقات عمّرت طويلا ، وأخذ بعضها شكلا حميماً .

وفى الثانية عشرة من عمره ، فى عيد الفطر لعام ٣٩٦ هـ ، نلتقى به فى مجلس الحاجب المظفر ، يشارك فى سماع المهنئين من الشعراء بالعيد ، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية ، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه ، فهو يحدثنا فى « الطوق » أن

ضنا العامرية ، كريمة المظفر ، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر ، اقترحت عليه أفكارها ، لتصنع لها لحناً ، وتجعل منها صوتاً يغنى .

ولم يتجه ابن حزم إلى دراسة الفقه جاداً ومتمكناً إلا شاباً مكتملاً ، فى السادسة والعشرين من عمره ، على ما يقول هو ، حين أخطأ فى صلاة الجنازة على شخصية هامة ، فكان موضع سخرية الحاضرين . وقد شك غرسية غومث فى الخبر ، ورآه لوناً من المداعبة ، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس الفقه وعلم الكلام مبكراً ، ولا أرى تناقضاً بين الأمرين ، لأن الدراسة النظرية لا تعنى عدم الخطأ ، لأن الممارسة تلعب فى العبادات العملية دورا أكبر من القراءة والدرس ، وصلاة الجنازة ليست مما يصلى كل يوم أو حتى كل شهر ، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعنى أكثر من أنه راجع ما قرأ ، وتعمق فيما درس ، واستحضر ماكان غائباً من تفصيلات .

وأيًّا ما كان الأمر ، فقد اختار ابن حزم فى هذه الفترة المبكرة من شبابه ، أن يكون واحداً فى رفقة من الأصفياء ، ربطت بينهم صداقة وطيدة ، أقلية من العشاق المصقولين ، تنتمى إلى أعلى طبقة فى المجتمع القرطبى ، عرض ابن حزم لبعضهم فى « طوق الحمامة » ، وأثنى عليهم كثيرا ، يتميزون بالأناقة ، ويرتدون أفخم الثياب ، فى أحدث الأنماط ، يفتنهم الجمال ، وتستهويهم الطبيعة ، تطربهم الموسيقى ، ويفضلون الأدب ، ويتبعون فيه منهجا ثورياً . كان هؤلاء الفتية ، كما تخيلهم غرسية غومث ، « يرتدون ملابس بيضاء ، ويحاورون بين أروقة بيضاء ، يغرمون بالأوز ، ويعشقون النساء الشقراوات » .

هؤلاء الفتية من الخاصة فى قرطبة كانوا يقفون عند نماذج الأدب المشرقى ، يعرفونها ، ثم يطرحونها ، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها . كانوا باختصار يقرأون كثيراً ، ويتمثلون ما يقرأون ، ويرحلون عبر العالم واقعاً أو قراءة ، ثم يبدعون

أخيراً . لقد التزموا منهجاً وسطاً ، ينأى عن التحلل الهابط ، ويتجاوز التقليد المميت ، ويزاوج بين حداثة الفكرة ، ودقة الصياغة ، وحرية الاختيار ، وهى القواعد التى جعلت منها الخلافة طابع المجتمع فى قرطبة . وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون فى مستوى الحياة ، ومواتماً للتطور السياسى حوله ، وكما يحدث عادة ، جاء ذلك متأخراً . وحين تهاوى نظام الخلافة بغتة ، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه ، ولمّا يعط إلا قليلا جداً من ثماره ، ثمار مبكرة ، وكثرتها غير ناضجة ، ولكنها شهية من الطراز الأول .

كان **أبو عمر بن شهيد** رأس هذه الجماعة ، مواضعة وعرفاً ، وترك لنا فى رسالته « **التوابع والزوابع** » ، وهى أول رحلة علمانية فى التاريخ إلى عالم الآخرة ، ما يمكن أن نعده دستور الجماعة . لقد صحب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح ، والتقى هناك بشياطين كبار الشعراء ، جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وبعض الكتاب ، فأنشدوه أشعاراً لأصحابهم ، وأسمعهم شيئاً من شعره ، وعرض على توابع الكتاب بعضاً من رسائله . وخلال الرحلة ينقد مجتمعه ، وما يفتقده فيه ، ويعرض آماله ، وما يطمح أن يكون عليه .

فهو يأسى لقرطبة تتحدث لكنة أعجمية ، تؤدّى بها المعانى تأدية المجوس والنبط ، ليس لسيبويه فى كلامها عمل ، ولا للخليل إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، ويشكو قوماً من المعلمين فى العاصمة ، « ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غلاظ ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن حمئة ، وأذهان صدئة ، لا منفذ لها فى شعاع الرقة ، ولا مدب لها فى أنوار البيان ، سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص على الإيقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها فيما يجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ومن لم تكن له آلة الصناعة » . ويكتب

أبياتاً ينافس بها الشعراء المشارقة ؛ ويؤكد أن الأدب الجيّد يعتمد على الموهبة ، قبل أن يقوم على سعة الثقافة ، أو مراعاة قواعد النحو ، وأن « أول أدوات الكاتب العقل ، ولا يكون الكاتب غير عاقل » . ويعني بالعقل الذكاء في لغتنا المعاصرة . والأدب هبة من الله ، لا يعلمه أستاذ ، ولا يلتقط من كتاب ، والشاعر يولد ولا يصنع ، وشر الفن ما كان وسطاً ، « لا يحسن فيطرب ، ولا يسيء فيلهى » ، وهى قاعدة جريئة فى الأدب العربى ، وليس دونها جرأة فى تلك الأيام ما رآه ، من أن « لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم نوع من الخطاب ، وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه » .

وتوفى **ابن شهيد** ، عام ٤٢٦هـ = ١٠٣٥م ، إثر داء عضال ، عانى مرارته زمناً ، وتحمل عناءه صابراً ، وخلفه **ابن حزم** فى رئاستها ، وكان له دائماً صديقاً وفياً ومخلصاً ، فسار على النهج نفسه ، واحترم تقاليد الجماعة وأسلوبها .

● أزمة الخلافة :

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية ثمارها ، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخط ابن حزم أى كتاب مهم له ، إذا استثنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية ، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجتماعية ، تفجرّت الحرب الأهلية فى قرطبة ، وعكّرت بعنف صفو الحياة المصقولة ، والهادئة ، لهؤلاء الشبان القرطبيين من عشاق الفن والجمال ، ويكفى أن أشير هنا لماما . وفى إيجاز شديد إلى ما أحدثته فى أسرة ابن حزم ، وفى حياته نفسه ، ليبقى خيط الأحداث متصلا .

لقد توفى العامرى الثانى ، **الحاجب عبد الملك المظفر** ، فى ١٦ من صفر ٣٩٩هـ = ٢٠ من أكتوبر ١٠٠٨م ، فولى الحجابة بعده أخوه **عبد الرحمن الملقب**

بشنجول ، وكان مجرداً من المواهب ، فاغتيل فى قرطبة بعد شهور من توليه الحجابة ، فى ٣ من رجب ٣٩٩ هـ = ٣ من مارس ١٠٠٩م ، وعُزِل هشام الثانى عن الخلافة ، وبويع بها محمد **المهدى** ، وأعفى **أحمد بن سعيد** من مناصبه ، وترك « **منية المغيرة** » حى كبار موظفى البلاط ، قرب ربض الزاهرة ، وقد أتى عليه الثائرون هدماً وتخريبا ، وعاد إلى سكنهم القديم فى **بلاط مغيث** ، ليواصل الحياة هادئا ، وبعيداً عن صخب السياسة ، واستطاع أن يحتفظ ببعض ماله من هيبة ، وسنلتقى به فى العام نفسه ، فى ٢٧ من شعبان ٣٩٩هـ=٢٦ من أبريل ١٠٠٩م يشهد المسرحية الرائعة المحزنة ، لدفن هشام الثانى ، المزيف طبعا ! وكان معه ابنه على صاحبنا ، وترك لنا وصفاً صادقاً ومؤثراً لما حدث ، يقول فى سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله : « وقد شاهدنا نحن مثل ذلك ، وذلك أننا اندرأنا للجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن ، وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، فى بيت ، وخارج البيت أبى رحمه الله ، وجماعة عظماء البلد ، ثم صلّينا فى ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيًّا ، وبويع بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا وغيرى ، وجلست بين يديه ، ورأيته ، وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام » .

وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠ هـ = ٢٣ من يولية ١٠١٠ م ، **اغتيل المهدى** بعد خلافته الثانية ، **وبويع ثانية هشام الثانى** ، بعد أن قيل للناس أنه مات ودفن ، وبعد أن شهدوا جنازته وصلوا عليه ! ، وكان الظن أن يعود بنو حزم إلى سابق عهدهم ، ومكانتهم القديمة ، غير أن الأمور سارت على النقيض . لأن لعبة السياسة المعقدة ، والموقف الحذر الذى سار عليه **أحمد بن سعيد** ، حتى ذلك الحين ، جعله يصطدم مع **القائد الصقلبى واضح** ، محسوب الخليفة ، فلاحقه

وسجنه وصادر أمواله . وحينئذ رأت الأسرة ، وقد تمزقت بقايا العامريين أن لها الحق ، مع غيرها ، فى أن تغضب وأن تقاوم ، فاشتركت فى عمل لمناهضة الصقالبة ، ولكن المؤامرة فشلت ، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبيرة :

ومع هذه الفتن اجتاح الطاعون قرطبة ، وعاث فيها ، وفقد **أحمد** ابنه **أبا بكر** ضحية له ، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١ هـ =يونية ١٠١١ م ، وبعد عام كامل توفى **أحمد** نفسه صريع هذه الأحداث ، فى ٢٨ من ذى القعدة ٤٠٢ هـ = ٢٣ من يونية ١٠١٢م ، ولعلّ صاحبنا ١٨ عاما لمّا تكمل ، وكان عليه وهو فى هذه السن الطرية ، وفى عنفوان تعاسة أسرته ، أن يواجه الموقف ، وأن يدير دفة الأحداث .

وبقيت كوارث أخرى أشد هولا ، ففى نهاية شهر شوال ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، استسلمت عاصمة الخلافة للبربر ، ودخلها **سليمان المستعين** ، خليفة للمرة الثانية ، وليبقى شهرين فحسب ، ومعه نُهبت قرطبة فى قسوة ، وانتهكت الحرم ، وعمّت الاغتيالات والمذابح ، واجتاح التدمير ، بلا حساب كل الأحياء ، وأتى البربر على بيت **ابن حزم** فى بلاط مغيث كاملا ، على نحو ما قص علينا فى صفحة من النثر الجميل ، فى كتابه « طوق الحمامة » ، وكان على ابنِ حزم أن يهاجر إلى المرية فى ١ من محرم سنة ٤٠٤ هـ = ١٣ من يولية سنة ١٠١٣ م .

● **منفى ومتآمر :**

فى وسط هذه الدوامة من الفوضى والتمزق ، كان يحكم المرية **خيران** ، صقلبى من فتيان العامريين . ووصلها **ابن حزم** رفقة صديقه **أبى بكر محمد ابن إسحاق** ، وأمضيا فى البدء أياماً هادئة ، بعيدين عن القلاقل ، فالمدينة أموية الولاء ، لما تزل – إسمياً – تحت سيادة الخليفة ، وأصبحت قبلة العامريين والأمويين الفارين

من قرطبة . وأمضى فيها ابن حزم أعواماً ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة ، وعن تكوين صداقات جديدة ، ففيها كما يحدثنا فى « الطوق » اتصل بطبيب يهودى ، يدعى **اسماعيل بن يونس** ، يتردد على دكانه ، ويجلس إليه فى لمة من الأصحاب ، ولسوء الحظ فإن معلوماتنا عن هذا الطبيب معدومة ، لا نعرف عنه شيئا إلا إشارة ابن حزم هذه .

ولكن **خيران** ما لبث أن رأى مستقبله السياسى فى أن يتخلى عن الولاء لبنى أمية ، وأن يؤازر **على بن حمود** الإدريسى فى الاستيلاء على قرطبة ، فدخلها فى زفة فى ٢٢ من محرم ٤٠٧ هـ = ١ من يوليو ١٠١٦ م . وأصبحت المرية مدينة علوية لا أموية ، وبربرية لا صقلبية ، ولم يعد خيران ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المثقفين ، يؤمنان بحق بنى أمية فى الخلافة ، حفاظاً على الشرعية ، وتمكيناً لهيبة الدولة ، ولا يقبلان فى هذا مساومة فاعتقلها بتهمة التآمر ، وهى تهمة ربما كانت محتملة ، ولو أن ابن حزم أنكرها على أية حال ، وما لبث أن نفاهما .

ومنفيان فى حصن القصر Aznalcazar ، وهى قرية توجد فى مقاطعة مالقة ، أو مرسية ، غير التى تحمل الاسم نفسه الآن قريبا من سان لوكر San Lucar ، سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموى يطالب بالخلافة ، فى أرض بلنسية شرق الأندلس ، وأنه أعد جيشاً سوف يزحف به على قرطبة لملاقاة بنى حمود ، ليجمع الشمل ، ويعيد الخلافة ، ويوحد الدولة ، فلم يترددا لحظة ، **ابن حزم وصاحبه أبو إسحاق** ، وكانا فى ميعة الشباب ، من التوجه شرقاً إلى بلنسية فى أول سفينة يجدان بها مكاناً .

كان المطالب بالخلافة فى هذه المرة شاباً من أحفاد عبد الرحمن الناصر ، يدعى **عبد الرحمن** بن محمد بن عبد الملك ، اكتشفه وحرضه على الثورة **خيران** الصقلبى صاحب المرية ، بعد أن نسى أمسه وغير جلده ، وأصبح رسوله إلى **منذر التجيبى**

صاحب سرقسطة ، والذى وقف إلى جانبه ، وزاد فطلب له العون من حليفه كونت برشلونة . وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٨ هـ — ٢٩ من أبريل ١٠١٨ تجمع الجيش والأعوان فى شاطبة ، وبويع عبد الرحمن بالخلافة ، وتلقب **بالمرتضى** . ولم تستطع قرطبة وقد طال بها الشوق إلى أمجاد الأمس الزاهر ، ونفد صبرها فى انتظار من يطالب بالخلافة ، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم ، فاغتالت **على بن حمود** فى ١ من ذى القعدة ٤٠٨ هـ — ٢٢ من مارس ١٠١٨ م ، فجثم على صدرها أخوه **القاسم** .

وبينما قرطبة تطوى الضلوع على ثورة صماء ، وكراهية غير مكتومة لبنى حمود تحرك **عبد الرحمن** ، وتلقب **بالمرتضى** نحوها على رأس جيشه ، عن طريق جيان ، وكان ابن حزم ، ضمن هذا الجيش ، فيما يرجح ، وكانت عاصمة الخلافة مهيأة لاستقبال الخليفة ، وكل الظروف تجعل من النصر أملا ممكن التحقيق ، لولا خيانة **خيران ومنذر** فى اللحظة الحاسمة . لقد ظن كلاهما ، فى البدء ، أن **المرتضى** سوف يكون مجرد لعبة فى أيديهما ، ظِلاً يحكمان من ورائه ، فلما وجداه ذا شخصية قوية ، قادرة على اتخاذ القرار المناسب فى اللحظة المناسبة أضمرا له الغدر ، ومن موقعهما مستشارين وحليفين قدّما له نصيحة قاتلة : من الأفضل له ، قبل أن يتقدم إلى العاصمة ، أن يقضى على **بنى زيرى** ، من بربر صنهاجة ، وقد استقروا فى كورة **إلبيرة** ، واتخذوا من **غرناطة** عاصمة لهم ، وكان على رأسهم حينئذ الأفريقى العجوز الداهية ، **زاوى بن زيرى** ، الذى لم يهزم أبداً ، والذى اضطر بعد قليل ، وفى قمة مجده ، أن يتنازل عن رياسته ، وأن يعود إلى إفريقية ليموت هناك مسموماً . وقد التقى الجيشان . وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة ، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخاً لها ، محدداً ودقيقاً .

لقد هجم **البربر** بشراسة على جيش **المرتضى** ، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه

خيران ومنذر ، فتمزق جيشه شر ممزق ، وهرب المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وفيها اغتالته عصابة مأجورة من المرية ، على حين توزع القتل والهرب والأسر جيشه ، وكان ابن حزم من بين الأسرى ، وطبقاً لما يذكره فى كتابه « الطوق » ، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة سرا ، فى شوال من عام ٤٠٩ هـ = فبراير من عام ١٠١٩ م للقيام باستطلاع الموقف السياسى ، وجس نبض المدينة على التأكيد.

وبعد أن أفلت ابن حزم من الأسر البربرى انسحب إلى شاطبة ، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التعيس فى ساعة نحس ، وفى شاطبة ، بين عامى ٤١٢ و ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م ، فيما يحتمل ، حرر كتابه « طوق الحمامة » ، وله من العمر ٢٨ سنة ، استجابة لرغبة صديق له من المرية ، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب ، ثم جاءه فيما بعد شخصاً إلى شاطبة ليراه ، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها.

● **بريق انتصار :**

لم تطل فترة خلافة بنى حمود فى قرطبة ، وكانت أشبه بجملة بين قوسين فى تاريخ الخلافة الطويل ، على حد تعبير المستشرق الإسبانى غرسية غومث ، فقد ضعف أمر **القاسم بن حمود** ، واضطرب الحبل فى يده ، وتسلط عليه البرابرة حتى احتقروه ، وأراد هو أن يخلص من سلطانهم فأحل السودان مكانهم ، واتخذ منهم جنده ، وأخذ يضرب أولئك بهؤلاء ، فتآمر البربر عليه ، بمعاونة **يحيى وإدريس** ابنا أخيه ، فترك قرطبة ، وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٢ هـ = ١٠٢٢ م. وتولى الخلافة مكانه **يحيى** الذى انصرف عنه السودان والبربر جميعاً ، فآثر السلامة ، وترك قرطبة كما تركها عمه من قبل ، فى ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤١٣ هـ = ٩ من سبتمبر عام ١٠٢٣ م ، وبينما المحن تطوق قرطبة من كل جانب ، بدأت تحاول شيئاً بناءً إلى

أقصى حد ، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل ، إذا لم نقل ثورياً فى عالم السياسة المضطرب : أن ينتخب الشعب الخليفة فى المسجد الجامع ، طبقاً لأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها ، أن يجىء الخليفة مختاراً لا وارثاً ، ولا معيناً من سابقه ، ولا مفروضاً بقوة السلاح . وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بنى أمية فى الأندلس .

لم تكن سلطة الخلافة الفعلية فى هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة ، وماذا يهم ؟ ... ألم يحدث شئ شبيه بهذا ، حين انحصر سلطان العاصمة فى عصر الأمير عبدالله ، وتحمل القرطبيون المهانة ، فى انتظار أيام مجيدة ، جعلت من قرطبة مصدر القوة والجلال والثقافة ، على أيام عبد الرحمن الناصر ، والحكم الثانى ، والمنصور بن أبى عامر ؟ . إن الأمل آخر شىء يمكن أن يفقده الإنسان العظيم .

وفى ١٦ من رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ من ديسمبر عام ١٠٢٣ م ، وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة : **سليمان بن المرتضى** ، **وعبد الرحمن بن هشام** ، **وعلى بن محمد العراقى** ، ولم يكن أحد بدءاً يفكر فيه على الإطلاق ، اختاروا عبد الرحمن بن هشام ، خامس الخلفاء الذين حملوا هذا الاسم ؛ وتلقب بالمستظهر . وكان الخليفة الجديد على حداثة سنة ؛ كما يصفه ابن حيان : « لبقاً ذكيا ؛ يقظاً لوذعيا ؛ لبيباً أديباً ؛ حسن الكلام ؛ جيد القريحة ، مليح العبارة ؛ يتصرف فيما شاءه من الخطابة ؛ بديهة وروية ؛ ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة ، لم يكن فى بيته يومئذ أبرع منه منزلة ، وكان قد نقّلته المخاوف ، وتقاذفت به الأسفار ، فتحنّك وتخرّج وتمرّن فيها » .

كان **المستظهر** يطمح أن يعيد إلى الخلافة بهاءها ، وإلى قرطبة أمجادها ، فأحاط نفسه بخيرة الأدباء على أيامه ، وجلهم ينتمون إلى جماعة المثقفين الذين أشرنا إليهم من قبل . فكان بينهم **ابن حزم** ، وابن عمه **أبو المغيرة عبد الوهاب** ، **وأبو عامر بن**

شهيد ، والشاعر البارع **حسان بن مالك** ، والكاتب الرائع **ابن برد** . ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوخ ، ومحترفى السياسة ، والمتنفعين بالمصائب ، فمضوا يألِّبون عليه العامة ، ويثيرون الفتن والدسائس بين الخاصة ، ويبيعون الأحلام للطامعين ، فلم يستطع أن يبقى فى الحكم أكثر من شهر ونصف ، فقد أعدم فى ٣ من ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ = ١٧ من يناير عام ١٠٢٤ م ، وبذهاب الخليفة استقر ابن حزم فى السجن من جديد .

● خيبة أمل ، وتغيير الطريق :

فى هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضيئاً ، ليقنعه بأن العالم السياسى الذى ينتمى إليه ، وناضل من أجله ، انتهى تماماً ، مات ولا سبيل إلى بعثه ، وقد احتاجت قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتقتنع بالنتيجة نفسها . وعندما خرج من السجن ، والإحساس بالخيبة يملأ داخله ، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة السياسة ، فنبذ الوزارة واطرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييد الآثار ، من شريعة وفلسفة وتوحيد وتاريخ ، وظل موصول السبب بها حتى فى أحلك لحظات حياته ، رجل دولة أو مغامراً أو لاجئاً ، « ونال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس » ، والشىء الوحيد الذى لم يتخل عنه ، وما كان بوسعه أن يفعل لأنه يحمله فى دمه ، هو روح المخالفة والأصالة والجرأة ، ورافقت حياته دائماً . لم يستطع أن يكون تقليدياً مالكى المذهب ، ورأى كبار علمائه فى مرات كثيرة ، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين عادة ، وفى كل مكان إلا ما ندر ، يتحالفون مع السلطان ، ويلتقون مع كبار الموظفين ، ويغيرون مواقفهم على النحو الذى يرضى الحكام ، فأصبح المذهب المالكى بفضلهم هو السائد فى قرطبة ، تعليما وشعائر وفتوى . وحوّم حول المذهب الشافعى قليلاً ، وأقام عليه زمنا ، ورآه أكثر

توفيقاً وتعادلا ، رغم قلة أتباعه ، ومناهضة الدولة لأوليائه ، ثم انصرف عنه ، فقد وجده يلفظ أنفاسه ، وانتهى به المطاف فقيهاً ظاهرياً ، قبل عام ٤١٩ هـ = ١٠٢٩ م ، وكانت له من قبل صلات بالمذهب ، ورفقة مع السائرين على دربه ، وصلات أدبية ، على الأقل ، مع علمائه .

وفى مسجد قرطبة الجامع ، إلى جوار أستاذه الظاهرى ، أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني ، أخذا يدرِّسان أصول المذهب الظاهرى مع آخر أيام الخلافة ، وقد أصبحت هذه شكلا مهلهلا ، حوالى أعوام ٤١٨ – ٤٢٠ هـ = ١٠٢٧ – ١٠٢٩ م . وقد اتهم علماء المالكية ، والجمهور من ورائهم ، الأستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيدة ، ويفسدان تديّن الشعب ، فاستشار صاحب المدينة فى أمرهما هشاماً الثالث ، آخر خليفة أموى ، وربما قبل أن يدخل المدينة ليمارس سلطاته ، وتقرر منعهما من تدريس المذهب الظاهرى . ومن تلك اللحظة أصبح ابن حزم عالماً ثائراً ، غير مرغوب فيه ، يواجه وحيدا التخلّف والتقليد والجمود ، وتزييف نصوص الشريعة لخدمة الأقوياء ، وبدأ يبشر بفكر إسلامى راق ، وفلسفة مستقيمة ، ولم تفتر حميته أبدا ، رغم كل المصاعب الجمة التى تعرض لها . ومع هذه المرحلة الجديدة من حياته سوف تقل معلوماتنا عنه كثيراً ، وسوف تصبح كتبه مصدرنا الوحيد لكتابة تاريخ حياته فيها .

● جهد ثقافى عملاق :

حتى ولو أخذنا فى الاعتبار أنه عمرّ نسبياً ، فإن ما قام به فى حقل الدراسات الإسلامية كان فرداً وعملاقاً ومتميزاً ، ويقول **عبد الواحد المراكشى** ، فى كتابه **« المعجب فى أخبار المغرب »** ، وألفه فى ظل الموحدين وهم ، يناهضون المالكية ، فجاءت أخباره بعيدة عن التعصب ، قريبة إلى الواقع ، إن ابن حزم كان أكثر أهل

الإسلام تصنيفا ، وإنه « صنف فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل ، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب ، والرد على المخالفين له ، نحواً من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله ، إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى » ، وبعض هذه المجلدات كما نعرف رسائل صغيرة ، ولو أن ذلك لا يقلل من جهد المؤلف ؛ ولا من قيمة الرسالة . ومحال أن نقف فى هذه العجالة عند هذه المؤلفات محللين ؛ ونحيل الراغبين فى هذا إلى الدراسة القيمة التى قام بها **ميجيل أسين بلاثيوس** لهذه المؤلفات ؛ فى كتابه العظيم عن « **ابن حزم القرطبى** » ؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية ؛ وسوف يصدر عن قريب . ولقد أرى ؛ ويرى غيرى معى ؛ أن الأمر رغم ذلك يحتاج ؛ على المدى البعيد ؛ إلى جهد آخر متأن ؛ فى ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة ؛ وما نشر له أخيراً من تراث .

يكفى أن نقف هنا عند كتابه « **طوق الحمامة** » ، وهو أروع كتاب درس الحبّ فى العصر الوسيط ، فى الشرق والغرب ، فى العالمين الإسلامى والمسيحى ، تتبع أطواره ، وحلل عناصره ، وجمع فيه بين الفكرة المفلسفة والواقع التاريخى ، وواجه قضاياه فى وضوح وصراحة ، ولمن شاء المزيد أن يعود إلى كتابنا : **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة** » .

ثم كتابه « **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** » ، وهو تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب ؛ غنى بمادته وأفكاره ، وحاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة ، فسبق ابن رشد فى ذلك بقرن من الزمان ، وهو يعرض لشتى مذاهب لفكر البشرى فى موضوع الدين ، من الإلحاد المطلق لا يؤمن أصحابه بشئ ، إلى يمان العوام يصدقون كل شىء ، ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين عقل والنقل ، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهرى الذى كان هو نفسه عليه .

وخلف لنا ابن حزم مادة طيبة فى التاريخ ، يهمنا أن نشير من بينها بخاصة إلى كتاب « **جمهرة أنساب العرب** » ، وهو أحسن قائمة بأنساب العرب فى الغرب الإسلامى ، ولمن يدرسون تاريخ الإسلام فى المشرق والأندلس . وكتاب « **نقط العروس** » ، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام فى المشرق والأندلس ، وفيما يبدو كان نقاطاً وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتاباً مطولا . وله رسالة فى « **بيان فضل الأندلس وذكر علمائه** » ، وجاء المقرى بنصها كاملاً فى « نفخ الطيب » ، وحررها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها ابن عمه ، **أبو المغيرة عبد الوهاب** بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم ، من أديب القيروان **ابن الربيب التيمى** ، أبو على الحسن بن محمد بن أحمد ، وربما كانت الأولى فى تاريخ الأدب الأندلسى ، وأول محاولة للإشادة بأمجاده ، ورغم قصرها جاءت شاملة بما ألف الأندلسيون فى صنوف الآداب والعلوم .

ويجئ كتابه « **الأخلاق والسير** » قمة بينها ، فى مادته ، وأفكاره ، ومنهجه ، وهو الذى نقدمه إلى القارئ محققا الآن ، ولأهميته سوف نعرض له فى فصل خاص .

ولابن حزم مؤلفات أخرى ، فلسفية وفقهية أو فى علم الكلام ؛ أو التاريخ ، أو الأدب الخالص ، وأحيل القارئ بشأنها إلى الكتاب الذى أشرت إليه فى بداية الكلام .

● فى مواجهة العواصف :

أنجز ابن حزم هذا العمل العملاق وهو يواجه أعتى العواصف والأعاصير ، هدفاً لكل ألوان الحقد والكراهية والتآمر ؛ اضطهده صغار ملوك الطوائف ، وكلهم صغار ، واتهمه رجال الدين بالمروق ، فلم تلن له عريكة ، ولا وهن منه

عزم ، وبقى وحده ، ومعه قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه ، يواجهون المحنة فى صلابة ؛ جباههم عالية ، وقاماتهم مرتفعة ، يحركون الأفكار الجامدة ، وينيرون العقول المظلمة ، ويهزون مسلمات كثيرة متخلفة ؛ ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية ، وُلِدَ كلاما يقال ، جدلاً عنيفاً مع خصومه ، وإدانة صريحة لهم ، وكانوا يتمتعون برعاية الدولة وحمايتها .

كان ابن حزم مجادلا لا يكل ، جاد الكلمة ، عنيف المناظرة ، واحتفظ جانب كبير من إبداعه بحرارة الحوار وحدته ، وكان فى حيويته هذه ، فى القرن الحادى عشر ، « مدرسية Scolastique » حية ومتوهجة ، تفوق « مدرسية » المسيحيين فى أوربا ، وقد أفرغوا الحوار من محتواه ، ودفعوا به جملا باردة ، لا روح فيها ؛ مماحكة خواء ، ورغم أنها بداية من عصرها الثانى ، مع الدم الجديد الذى تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس ، ومع توماس الأكوينى ، شهدت فترة ازدهار وحياة ، إلا أنها كانت تهم العلماء وحدهم ، وقليلا ما تتجاوز آثارها قاعة البحث ، أما فى قرطبة القرن الحادى عشر ، فكانت تهم الجمهور كله ، ويتبع صداها شغوفاً . لقد تميزت « مدرسية » قرطبة ، بشدة الإيقاع ، وأصالة المحتوى ، وحرية المنهج ، والدفء والتجدد والبساطة ، ومشاركة عامة الناس على نحو ما .

لقد عاين ابن حزم من ألوان الظلم ما أنضب فى أعماقه معين الرقة واللين ، وشاهد من مساءات السياسة ما نفره منها ، وأوذى فى نفسه وكرامته ، فاعتزل الدنيا محاصراً ووحيدا ، فى قريته منت لشم ، من بادية ولبة ، يواصل رسالته بنفس القوة التى بدأ بها حياته ، شاباً واعداً ومناضلا عنيداً ، « يبث علمه فيمن ينتابه ببادية تلك ، من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ؛ والمواظبة على التأليف ،

والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير . لم يَعْدُ أكثرها عتبة بابه ، لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها ؛ حتى أحرق بعضها بإشبيلية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها ، وجدالاً للمعاند فيها ، إلى أن مضى لسبيله » .

فى رسالة ابن حزم « **فضائل أهل الأندلس** » فقرة ، كأنما عنى بها نفسه ، رغم أنه كتب الرسالة فى زمن مبكر نسبياً ، ولا يستطيع الدارس لحياته أن يمر بها دون أن يقف عندها . يقول : « أزهد الناس فى عالم أهله ، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده » .. « ولا سيما أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتى به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما فى سائر البلاد . إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمان قرأ ؟ ولأمه الهبل ! .

« وبعد ذلك إنْ ولجت به الأقدار أحد طريقين ، إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً فى غير السبيل التى عادوها ، فهناك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نُحِلَ مالم يقل ، وطُوِّقَ ما لم يتقلد ، وأُلْحِقَ به مالم يفه به ، ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرّز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غُمِزَ ولُمِزَ ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعُظِّمَ يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته ، وتكلّ نفسه ، وتبرد حميته . وهكذا عندنا تصيب من ابتدأ يحوك

شعرا ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت ، والمطفف المستولى على الأمد » .

● محافظون ومجددون :

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه ، حاد الذكاء ، موسوعى الثقافة ، صلب العزيمة بلا حدود ، عنيف المواجهة دون مثال ، لعب دوراً هاما فى تطوير الفكر الأندلسى ، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة ، والرسمية فى الوقت ذاته ، لقد احتضن الأندلس حتّى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، لونين من الثقافة ، يسيران فى خطين متوازين دون أن يلتقيا : المحافظون وهم الكثرة الغالبة ، والمتحررون . وكان المحافظون وأعنى بهم علماء المذهب المالكى السائد فى الأندلس ، وقفوا بنشاطهم الثقافى عند حد التشريع العملى ، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة بالعقيدة نفسها ، واتّهموا كل من يتكلم فى المنطق بالزيغ ، وكل تفكير عقلى فى مسائل الدين بالزندقة . وكان الاتجاه الثانى يتحرك بين قلة مثقفة ، ولكنها لا تطمح ، ولا ترى لها مصلحة ، فى مواجهة المحافظين أو الدخول معهم فى خصام ، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة .

وقد ظل المالكية حتّى القرن السادس الهجرى يقاومون الأشعرية ، ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك فى حرية ، وقد وصلنا كتاب « تقويم الذهن » لأبى الصلت الدانى ، أمية بن عبد العزيز ، المتوفى عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م ، وهو رسالة فى المنطق ، توجز آراء أرسطو . وكان ابن حزم علماً فرداً ، واتجاهاً متميزا ، ولم يكن مالكياً ولا أشعرياً ، ولا زاهداً ولا أرسطوطاليسيا ، بل واتّهمه ابن حيان بأنه لم يفهم أرسطو ، ومحدود الأتباع كظاهرى ، يبذل جهداً فائق النظير ، لكى يقيم

جسراً بين العقيدة والمنطق .

ومهما يكن من أمر ، فقد نضجت شخصية **ابن حزم** ، واستكمل عدته ، ومكنت له الأحداث من صقل مواهبه ، وزادته اعتداداً بنفسه ، فمضى فى طريقه ، يتمرد على التقاليد القائمة ، ويثور على الجمود الدينى ، ويهاجم المذاهب المختلفة ، فقهية وكلامية ، مسلمين وغير مسلمين ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلّما أتيحت له الفرصة ، بالمناظرة فى المجالس ، وبتأليف الكتب والرسائل ، واتسم جدله بقوة الحجة ، ونصاعة البيان ، وقوة الدليل ، ولكنه وقد ملك لساناً ذرباً ، مسلّحا باللغة المواتية ، حتّى قال عنه الصوفى لأندلسى ابن العريف : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع ، وإنما يحتد فى أحايين كثيرة ، فيتجاوزها إلى التسفيه والتكفير والتفسيق . وهى حدة تعود فى جانب منها إلى عصبية مزاجه ، واعتلال صحته طفلاً ، ولا أراها مما يعاب عليه جملة ، فهى تأتى منه ، غالباً ، فى موضعها ، وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن بها إلى صوت مرتفع ، لتوقظ نائما ، وتنبه غافلاً . يقول عن نفسه :

« ولقد أصابتنى علة شديدة ، ولّدت على ربواً فى الطحال شديداً ، فولّد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمراً حاسبت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده » .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعلماء عصره ، وكان منه ما أسماه بن حيان « أنه يجهل سياسة العلم » ، وجعلها مصدر معظم أخطائه . ونحن نكتب عن حياة عظيم ، مرت على وفاته أكثر من ألف عام ، وعاش فى بيئة جد مختلفة ، يستحيل علينا أن نجزم ، أو حتّى نرجح ، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة فى ملاقاة معاصريه .

● **مناظرات وملاحقة :**

لا نعرف ، كما أشرنا من قبل ، شيئاً دقيقاً وموثقاً عن الأعوام الأخيرة من حياة **ابن حزم**. نعم ، نعرف أنه أصبح مثقفاً عنيداً ، أخا سفرٍ ، جوّابَ آفاق ، يتنقل بين دول الطوائف المختلفة ، يحاور العلماء ويجادل الفقهاء ، ويناظر أهل الكتاب ، وفى عنف دائماً ، كما هى عادته . صنع ذلك فى قرطبة والمرية وطلبيرة وميورقة ، وربما فى مدن أخرى لم يصلنا خبرها . وفى **ميورقة** ، وجاءها لاجئاً بعد عام ٤٣٠ هـ = ١٠٣٩ م ، وجد الحماية والتقدير فى شخص عاملها الوزير الكاتب **أبى العباس** ، أحمد بن رشيق ، وكان مولى لبنى شهيد ، وتأدّب فى قرطبة . ووجد أيضاً مزاحمة شديدة فى شخص قرطبى آخر مثله ، أصغر منه سناً : **أبو الوليد الباجى** ، من كبار فقهاء المالكية ، وكان قد رحل إلى المشرق ، ولبث فى رحلته هذه ثلاثة عشرة عاماً ، لقى فيها كبار العلماء فى الفقة والحديث وعلم الكلام ، « فبرع فى الحديث وعلله ورجاله ، وفى الفقه وغوامضه وخلافه ، وفى الكلام ومضايقه » ، وكان إلى هذا ، كابن حزم ، أديباً يقول الشعر ، ويحسن تدبيج الكلام .

ولما عاد من رحلته تلك وجد ابنَ حزم مجادلاً ، وصاحب مذهب متميز ، تسد شهرته الأفق ، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق ، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ العجز ، ففرحوا بمقدم **أبى الوليد الباجى** إلى ميورقة ، وأثاروه على **ابن حزم** ، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل . وانعقدت بينهما المناظرات فى الفقه ، وفى علم الكلام أيضاً ، وكان **أبو الوليد** مقدم **الأشاعرة** فى الأندلس ، **وابن حزم** خصماً لدوداً لهم ، وليس ثمة شك فى أن ابن حزم وجد فى مناظره لوناً جديداً من العلماء لم يعهده من قبل ، وسوف يعترف فى رسالته عن « فضائل أهل

الأندلس » : « لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبي الوليد لكفاهم » .

لم يتوقف الذين عجزوا يوماً عن مواجهة ابن حزم فى ساحة الجدل والمناظرة عن الكيد له ، والدس عليه ، عند سلطات الجزيرة ، فلم يجد بداً من تركها ، وما من أحد فى ملوك الطوائف يرغب فى أن يستضيف بأرضه عالماً مزعجاً ، لا بسبب آرائه الدينية فحسب ، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضا ، فقد ظل ابن حزم متمسكاً بشرعية الخلافة الأموية ، لم يتزحزح عن رأيه أبداً ، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة ، لا صلة لها بالواقع ، ولا مطمح أن تعود ، ولكنه لم يشارك فى اللعبة السياسية المعقدة التى كانت تجرى على أيامه هذه ، ولم يحتضن فكر أية جماعة معارضة ، وفى رسالته « **التلخيص لوجوه التخليص** » ، وجاءت رداً عن سائل يطلب الرأى عنده فى قضايا كثيرة ، سؤال عن الموقف الذى يجب على المرء أن يتبعه « من أمر هذه الفتنة ، وملابسة الناس بها ، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض » ، كانت إجابة ابن حزم : « ... فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذم جميعهم . فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه » . ولقد ذم ملوك الطوائف جميعهم فى رسالته هذه ، وحمل عليهم فى غير هوادة : « وعمدة ذلك أنّ كل مدبرٍ مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساعٍ فى الأرض بفساد ، والذى ترونه عيناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارّهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ، ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله » . ونحن « نراهم يستمدون النصارى

فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم » ، « وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه » .

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه ، وعلى أيامنا أيضا ! . فتاواهم مُعَدَّة ، وأقلامهم مشرعة ، يدعمون بها الطغاة خوفاً ، ويبررون لهم المظالم طمعاً ، ويسبحون بحمد الحاكم ملقاً ، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا ، بغير العاجل من شئون الآخرة ، « فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمتنسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » .

وأقسى هجوم خص به ملكاً من الطوائف ، كان موجهاً ضد أمير غرناطة ، باديس بن حبوس الذكى الدموى الداهية ، رأس البربر ، وخليفة زاوى بن حبوس الذى قضى على محاولة المرتضى ، على نحو ما أشرنا ، وأخذ ابن حزم سجيناً ، ذلك أن باديس جمع فساد بقية ملوك الطوائف وزاد عليه بأن اتخذ وزيره الأول ، ومستشاره الأمين ، من اليهود ، **ابن النغريلة** الشهير الذى مكن لأبناء قومه من رقاب المسلمين ، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة ، ثم أخذته العزة بالإثم « فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانه تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغتراراً بالله تعالى أولا ، ثم بملك ضعفة ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عوْداً » . وقد رد عليه **ابن حزم** قوياً وعنيفاً فى رسالته : « **الرد على ابن النغريلة اليهودى** » ، فنقض آراءه ، وفند حججه ، وبين مساوىء قومه ، وأراد لصوته أن يكون عالياً وقاسياً ليبلغ ملك غرناطة ، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقداً ومهدداً ومستنهضا : « **إن أملى لقوىّ ، وإن رجائى مُسْتحكم ، فى أن يكون الله تعالى يُسلِّط على من قرّب اليهود وأدناهم ، وجعلهم**

بطانة وخاصة ، ما سلط على اليهود ، وهو يسمع كلام الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم » . « وإن من فعل ذلك لحريّ أن يشاركهم فيما أوعد الله تعالى فى توراتهم ، فى السفر الخامس ، إذ يقول لهم تعالى : « ستأتيكم ، وستأتى عليكم ، هذه اللعنة التى أصف لكم ، فتكونون ملعونين فى مدائنكم وفدادينكم ، وتُلْعَنُ أجدادكم وبقاياكم ، ويكون نسلكم ملعوناً ، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج » .

هل قنع ابن حزم بهجومه الفكرى ؟ .

فى كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، فقرة مثيرة ، نقلها عن المؤرخ القرطبى العظيم ابن حيان ، جاءت خلال حديثه عن الهزيمة المريعة التى أوقعها باديس ابن حبوس ، أمير غرناطة ، بزهير الصقلبى أمير المرية ، وفيها أن باديس ظهر « على قوم من وجوه رجال زهير ، فعجل على الفرسان والقواد بالقتل ، واشتمل الأسار على حملة الأقلام ، وفيهم وزيره التيّاه أحمد بن عباس الجار لهذه الحادثة ، قيد إلى باديس وصدره وصدور أصحابه تغلى عليه ، بما أوقد من هذه النائرة ، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالاً ، وشفاؤه الولوغ فى دمه ، وعجّل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقلام ، عفّ باديس عن دمائهم من بين أصحاب السيوف إلا من أصيب منهم فى الحرب ، وأطلق ابن حزم والباجى وغيرهما » . ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا ، وقد ارتبط بالمرية دائماً ، ولعله أراد أن يثأر لأسره الأول فوقع فى الأسر الثانى ، وكان برفقة أبى الوليد الباجى ، مناظره اللدود والعنيد فى مناظرات ميورقة . بينما يرى الأستاذ الجليل ، الدكتور طه الحاجرى ، فى كتابه « ابن حزم : صورة أندلسية » وقد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشرق الإسبانى ، والتفت إليه ، أنها تنصرف إلى أبى المغيرة .

كان عداء ابن حزم لباديس أمير غرناطة ، ورأس البربر فى الأندلس ، عنيفاً وجاداً وله ما يبرره ، ولكنه لم يلق به ، وهو رجل مبدأ لا يحيد عنه ، فى أحضان الحزب المعارض لباديس ، وهم بنو عباد فى إشبيلية ، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامة ، ومع رجال الفكر بخاصة ، وكانوا ، بحق ، قادة الجانب العربى فى معركة التزاحم بين الأجناس المختلفة ، وسادة المنطقة التى استقر فيها بيت آل حزم من قديم ، وبها تراثهم وديارهم ، ورغم ذلك كله ، أدار لهم ابن حزم ظهره ، إنه صلب العقيدة ، طاهر السيرة ، يرى الخلافة شرعة ، وفى بنى أمية شرعا ، لا يساوم ولا يتراجع ولا يتأول ، ولا يرتضى أنصاف الحلول . وكان المعتضد أمير إشبيلية ، وحكم من ١٠٤٢م إلى ١٠٦٩م ، كقرينه أمير غرناطة ، دمويًّا قاسياً ، يأخذ بالظنة ، ويخفر الذمة ، ويبلغ فى المثلة ، فلم « يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد » ، ولابد أن رأى ابن حزم فيه كان كرأيه فى باديس . ونجهل التاريخ أو الظروف التى أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم ، وحرقها علانية ، وفيها نظم ابن حزم أبياته الشهيرة عندما بلغه أمرها ، والتقطها كل الذين أرخوا له :

دعونىَ من إحراقِ رقٍّ وكاغدٍ وقولوا بعلم كىْ يرى الناس مَن يدرى
فإن تحرقوا القرطاسَ لم تحرقوا الذى تضمَّنه القرطاسُ ، بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلتْ ركائبى وينزل إنْ أنزلْ ويُدفن فى قبرى

● هزيمة دون كيشوته :

ـ وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شىء ، وأشد مرارة وتشاؤماً من مواطنه كيشوته الإسبانى ، بطل رواية سرفانتيس الشهيرة ، وعاش على الأرض نفسها ، بعده بخمسة قرون ، وذهب كلاهما ضحية أحلامه .

وقد حدد لنا ابن حزم منهجه فى « **الأخلاق والسير فى مداواة النفوس** » : « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل ، وفى دعاء إلى حق ، وفى حماية الحريم ، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفى نصر مظلوم ، وباذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى » . و « إنى لا أبالى فيما أعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ، وإنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها » .

لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف ، عقيدة وسلوكاً ومنهجاً فى الحياة ، ودعا إلى سلامة الباطن ، وخلوص النية ، واستقامة العمل ، وناضل عما يؤمن به دون هوادة ، وفى كل مكان ، وأثار على أعدائه حرباً شعواء متصلة .

دافع عن الإسلام فى وطنه وبين أهله ، وبعيداً عنه خارج حدوده ، بالموعظة الناصحة ، والشروح الكاشفة ، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة ، وحين نظم نقفور فوكاس إمبراطور بيزنطة ، مزهواً بانتصاراته ، قصيدة ذم فيها الإسلام ، وبعثها إلى الخليفة المطيع فى بغداد ، تولى ابن حزم الرد عليه ، بقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام ، وكشف عن تناقضات المسيحية ، وأرسلها إليه ، وأورد لنا السبكى نصها فى كتابه « طبقات الشافعية » .

وظل حتى آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية فى الأندلس ، وقد اختفت إلى الأبد ، وشديد القناعة بأن « **نوار الفتنة لا يعقد** » وكان يحس بأنه لم يخلق لعصر الطوائف ، وظل يبشر بمذهبه الظاهرى وسط المتاعب والصعاب ، وفى مواجهة الجميع ، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم على الاقتصاد والسياسة ، على نحو ما فعل مواطنه أبو إسحاق الإلبيرى ، وكان شاعراً وفقيها ، ودفع بقصيدته الرائعة مسلمى غرناطة موطنه ، إلى الثورة على مظالم يهودها ، فانتقموا منهم ، وأتوا

على نفوذهم ، فى يوم عاصف مريع [١] .

وانتهى المطاف بابن حزم وحيدا ، فكراً وإحساساً ورفقة ، شبحا لعصر مضى ، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى فى قرية منت لشم ، من وديان ولبة ، فى تاريخ نجهله لسوء الحظ ، رفقة أولاده فحسب ، ولم يحدثنا عن أسرته القريبة أبدا ، فى كل ما كتب ، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء .

أية مشاعر حزينة كانت تغمره ، وهو يعود إلى قريته فى الريف مهزوما ، مغلوباً على أمره ، قريته التى خرج منها جده قبل جيلين فقط ، مغمورا ينتسب فى أسرة اعتنقت الإسلام من قريب ، وصنع لها والده مجداً مؤثلا ، يومها كتب فى « الأخلاق والسير » : « أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل ، وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى » ولم يتوقف هناك عن العمل ، مضى فى قريته يؤلف كتبه ، ويحرر رسائله ، ولو أنها على حد تعبير ابن حيان : « لا تتجاوز عتبة داره » ، وأوضحها كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » . وهو سلسلة من الاعترافات سجلها وله من العمر ٦٩ عاماً شمسيًّا ، أو ٧٢ عاماً قمريًّا ، وتوفى يرحمه الله فى ٢٨ من شعبان ٤٥٦ هـ = ١٥ من يولية ١٠٦٣ م :

كأنّك بالزوّار لى قد تنادروا   وقيل لهم أودَى علىُّ بن أحمد
فياربَّ محزونٍ هناك وضاحكٍ   وكم أدمعٍ تذرى وخدٌّ مخدّد

---

(١) انظر :

● اميليو غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى ، ص ٨٩ وما بعدها ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

● د . الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية ، ص ٥٨ وما بعدها ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

عفا الله عنّي يوم أرحلُ ظاعنا عن الأهل محمولاً إلى بطنِ ملحد
وأتركُ ما قد كنت مغتبطاً به وألقى الذى آنستُ دهراً بمرصد
فـواراحـتى إن كان زادى مقدّما ويا نَصَبى إنْ كنتُ لم أتزوّد

● تلاقى النقيضين :

درج الباحثون على تقسيم حياة ابن حزم الأدبية إلى مرحلتين هما ، فيما يرى أسين بلاثيوس : « واحدة حتّى الثلاثين من عمره ، والأخرى منهما حتّى موته » . وفى الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة ، وفى الثانية ترك السياسة ليتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد . وهى تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظرى فحسب ، لأن المرحلتين تعايشا واقعاً ، على امتداد حياته ، ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة ، ودون ذلك ليس ثمّة مجال لالتقاط نفسيته شابًّا ، ومعرفة الكثير من إشارات كتاب « **الأخلاق والسير** » وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها .

ويرى **غرسية غومث** ، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق ، أن تلاقى الأضداد فى شخصيته ابن حزم ، وازدواجية الصوت عنده ، وتجاور اللطف والخشونة ، والرقة والعنف ، والنبل والعامية ، دون أن يذوب أحدها فى الآخر ، يجعل منه شخصية محببة لنا (الضمير يعود على الإسبان) ، لأنها تضعه إلى جوار عدد من قمم الأدب الإسبانى فى عصره الذهبى ، أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبرية واضحا ، مثل الشاعر القرطبى **جونجرة** Gongora (١٥٦١–١٦٢٧) ، والموسوعى **كـبـيـدو** Quevedo (١٥٨٠–١٦٤٥) ، وتستطيع أن نذكر آخرين كثيرين ، ليس بينهم **ثرفانتيس** مؤلف الرواية العالمية الخالدة دون كيخوته ، وأعطانا المثل رائعاً ، ولا يتكرر ، كيف تلتقى متناقضات سلالتنا الجذرية فى تركيب إنسانى ومفهوم ، حلو وحزين ، وإلى ذلك ، وفى خط

موازٍ له ، يمكن أن نضيف الشموخ الإسبانى ، وأعطانا ابن حزم خلاصته فى بيت شعرى ينضح خيلاء ، وفى مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسبانى :

أنا الشمسُ فى جوِّ العلوم منيرة   ولكن عيبي أنّ مطلعىَ الغرب

● **ثائر على الدوام :**

كان ابن حزم متمرداً وثائراً فى شبيبته الأدبية ، وفى شيخوخته العلمية ، وحتّى آخر رمق من حياته ، مع ظلال مختلفة . توائم كل فترة ، وقليلون سبقوه فى أفكاره ، وأقل أولئك الذين ساروا بعده على طريقه ، وحتّى أبناؤه أنفسهم كانوا عاديين ، تخلصوا من نير الأدب ، والتصقوا بعصرهم ، وأشهرهم **الفضل أبورافع** ، وأصبح وزيراً لبنى عبّاد فى إشبيلية ، وشاعرهم المداح ، وما أشد ما كرههم أبوه ! واستشهد فى معركة **الزلاقة** وانتصر فيها **المرابطون** وهم أشد التصاقاً بالمذهب المالكى ، وضيقاً فى فهمه ، وانصياعاً لفقهائه ، وأشد الناس ملاحقة لأبيه . ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب ، ولكن المدرسة الظاهرية ، وتحديد **أسين بلاثيوس** لها فى دراسته **لابن حزم** لا يعلى عليه ، ظلت موضع الملاحقة حتّى فى المغرب ، ولم يبق لها غير حياتها الذاتية بالكاد . وأما الثناء النسبى الذى حظى به ابن حزم فى **عصر الموحدين** ، والتقدير الذى حظى به من علماء عباقرة ، **كالغزالى** ، **وابن عربى** ، **وابن رشد** ، فيعود أكثره إلى ظروف سلبية ، كمعارضتهم لفقهاء المالكية ، أو إلى توافقات عقلية فى المقام الأول ، أكثر مما تعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم ، وشق عليهم من بينها مناهضته العنيفة للأشعرية . والحق أن معظم الدارسين على أيامه ، وبعدها ، حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان ، لأنه هاجم الجميع ، ولم يقف بهجومه عند المسلمين ، لقد هاجم ، وبعنف كالعادة ، اليهود .

والمسيحيين ، واستطاع هؤلاء فيما بعد أن يردوا له الصاع صاعين ، حين مضى إلى رحاب الله ، وبدأ عصر الترجمة فى الأندلس المسيحى ، فلم يأخذ اسمه طريقه إلى أوربا فى تلك الفترة ، ولم يصبح فى مستوى علماء دونه قامةً ، كابن رشد وموسى بن ميمون ، فخفت اسمه ، وتلاشت سيرته ، وظلت مؤلفاته تحت الأرض لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية ، وظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية ، وازدهر عصر الاستشراق ، وأفلتت الدراسات الأندلسية فى إسبانيا من قبضة التعصب ، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربى .

وإنه لمثير حقا ، أن العداوة البالغة ، لهذه الشخصية العملاقة فى تاريخ الفكر الأندلسى ، أسهم فيها رجال الدين المتخلِّفون فى العالم الإسلامى المعاصر ، واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربى ، واشترك فيها عدد غير قليل من الإسبان ، فظل اسم ابن حزم ، وعلمه ، موضع جدل كبير ونقاش حاد ، ولكن أحداً لم يستطع أن يشجبه أبداً ، وعلى الرغم من كل شىء تقاسمته ألقاب جليلة وكريمة : أحسن شاعر ، وأحسن فيلسوف ، وأحسن متكلم ، يثق فيه علماء البلاغة ، ويجله رجال الأدب ، ويحترمه المثقفون .

كان واحداً من أعظم عمالقة الفكر الإنسانى على امتداد تاريخه الطويل !

● الكتاب :

توثيق ودراسة

أمضى ابن حزم الأعوام الأخيرة من حياته فى أرض أسلافه ، وهى ضيعة صغيرة كانت لهم تعرف بمنت ليشم Mont Lisam ، وهو اسم من أصل رومانثى – كما نرى – أى من عامية اللاتينية التى كانت تتحدّث فى الأندلس لحظة الفتح الإسلامى وما بعده ، ولم تتلاش تماماً أبدا ، والقرية لاتزال قائمة حتى يومنا ، وتحمل اسم بيت منتيخا Casa Monteja ، على بعد كيلو مترين تقريباً من مدينة وُلْبَة المعاصرة ، انسحب إليها مهموماً ممروراً ، فى تاريخ نجهله ، يلقى طلابه ، ويبثّ علمه ، ويحرّر كتبه ، زاهداً فى الدنيا ، راغباً عن كل شىء .

وفى هذه الفترة حرّر رسالته التى بين أيدينا ، وإذا لم تكن آخر سطور خطها قبل أن يلقى الله ، فهى على التأكيد من بين آخر ما كتب ، ولو أنّ ذلك لا يعنى بداهة أن تفكيره فيها جاء فى اللحظات الأخيرة من حياته ، لأن أسلوبه يومىء – كما سنشير إليه – إلى أنها خواطر متناثرة ، ووليدة تجارب متباينة ، سجلها فى فترات متباعدة ، لوناً من اليوميات ، أو الاعترافات إنْ شئت ، وأخذت شكلها النهائى خلال فترة اعتكافه ، بعد أن تكوّنت فى أناة ، على مهل ، وخضعت للمراجعة والتأمّل ، عبر حياته المديدة ، ثم نضجت فى شيخوخته ، وآتت ثمارها وهو على أُهبة الرحيل من الدنيا ، فكانت هذه الرسالة ، أو هذا الكتاب .

كان المؤرخ الأندلسى ابن حيان ، المتوفى عام ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م ، مصدراً هاماً

ودقيقاً فيما قدّم لنا من معلومات عن ابن حزم ومؤلفاته ، فهما متعاصران ، ولنا أن نزعم أنهما تلاقيا وتعارفا ، ولا أقول تصادقا لأن مفهوم ابن حزم للصداقة دقيق وجليل ، فكلاهما وزر لعبد الرحمن المستظهر فى خلافته القصيرة التى لم تتجاوز شهرا ونصف من عام ٤١٤ هـ = ١٠٢٤ م . وعمرّ ابن حيان طويلاً ، امتدت به الحياة حتى جاوز التسعين عاما ، وكانت وفاته بعد وفاة ابن حزم بثلاث عشرة سنة ، وجاء قبله إلى الحياة بأعوام ، وجاءت أخباره عن ابن حزم فى « المتين » من كتبه التاريخية التى تناولت الأندلس بعامة ، لأن « المقتبس » منها تنتهى أحداثه بنهاية خلافة الحكم المستنصر تقريبا ، عام ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م ، ولمّا يكن ابن حزم قد جاء إلى الحياة ، وفيما بعد قرأ ابن حزم هذا الكتاب فأعجب به ، وأثنى عليه ، وافتخر به فى رسالته « فضل الأندلس » ، ونعته بأنه « أجلّ كتاب أُلِّف فى هذا المعنى » .

أما كتابه « المتين » فيبدأ بأحداث الفتنة البربرية التى تفجرت فى الأندلس عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م ، وانتهت قريبا من عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م ، قبل موت ابن حيان بسنوات قليلة ، لأن ابن بسام صاحب كتاب « الذخيرة » توقّف فى النقل عن ابن حيان عند هذا التاريخ ، وكتاب « المتين » ضاع كله ، ولم يصلنا منه إلاّ ما نقله عنه الذين جاءوا بعده ، وكان ابن بسام أكثرهم اغتناما له ، ونقلا عنه ، وأورد فيما أخذ منه ترجمة ضافية لابن حزم ، تضمنت جانبا كبيرا من مؤلفاته ، وذكر من بينها « كتاب أخلاق النفس » .

ومن المرجح أن الجزء الذى تضمن الفقرة الخاصة بابن حزم ومؤلفاته لم تظهر كتاباً محرراً يقرؤه الناس إلاّ بعد وفاة ابن حزم عام ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م ، وبداهة قبل الانتهاء من تأليف الكتاب عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م ، لأن ابن حيان مسّ نسب ابن حزم فيما أورد عنه ، وطعن فى صحته ، وبعد أن أفاض عليه مدحا ، وأغرقه

ثناء ، أخذ عليه أنّه « من غرائبه انتماؤه فى فارس ، واتّباع أهل بيته له فى ذلك ، بعد حقبة من الدهر تولىّ فيها أبوه الوزير المعقّل فى زمانه ، الراجح فى ميزانه ، أحمد بن سعيد بن حزم لبنى أمية أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهده الناس خامل الأبوّة ، مولّد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام ، لم يتقدم لسلفه نباهة ، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر برأس رابيةٍ ، وعمّده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى ، فاغتدى جرثومة شرف لمن نماهم ، أغنتهم عن الرسوخ فى أولى السابقة ، فما من شرف إلاّ مسبوق عن خارجية ، ولم يكن إلاّ كلاّ ولا ، حتى تخطىّ علىّ هذا رابية لَبْلَة ، فارتقى قلعة إصطخْر من أرض فارس ، فالله أعلم كيف ترقّاها ، إذ لم يكن يؤْتى من خطل ولا جهالة ، بل وصله بها وُسْعُ عِلْمٍ ، ووشيجة رحم معقومة ، بلّها بمستأخر الصلة ، رحمه الله »[1] .

إنها إشارة ما كان لابن حزم أن يسكت عنها لو قيلت وهو على قيد الحياة ، كان سيرد عليها عنيفا – كعادته – نافيا أو مؤكدا أو مبررا . والحق أن ابن حيان لم يستهدف بها بدءا الإساءة إلى ابن حزم قاصداً ، وإنما مستجيبا لمنهجه فى التأريخ ، وفيه « تنكب طريقة كثير من المؤرخين المسلمين ، حين يتحرجون من ذكر معايب الموتى ، جريا وراء المثل القائل : « اذكروا محاسن موتاكم » ، فهو يذكر المحاسن ولكنه لا يحجم عن ذكر المساوئ ، لا يوردها ملتوية تومئ وتشير ، وإنما يذكرها صراحة دون مواربة ، وفى جرأة دون تردد »[2] .

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ مجلد ١ ، ص ١٧٠ ، طبعة إحسان .

(٢) انظر : د . الطاهر أحمد مكى ، دراسة فى مصادر الأدب ، الفصل الخاص بكتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

وهى اشارة لا تمس فضل ابن حزم بحال ، فلا ضير عليه ، ولا تفرق عندنا ، وليس بذى أهمية أيضا ، أن يكون جده الأعلى عربياً وثنياً ، أو فارسيا مجوسيا ، أو إسبانيا كاثوليكيا ، أو حتى بلادين على الإطلاق ، لأنه كان ، فى كل الأحوال ، مسلماً مخلصاً ، ومؤمناً صادقاً ، دافع عن الإسلام عقيدته فى حماسة وحمية واستبسال لا نجدها إلاّ عند قليلين ، وكل ما هنالك أن بعض مناهج البحث العلمى المعاصر تعطى شيئا من الأهمية للخصائص الوراثية والمزاجية لكل جنس ، عند دراسة مواقف الأشخاص تجاه بعض القضايا ، وهو منهج لا نأخذ به على إطلاقه ، ولا يسقط كلية ، لأن دراسة سلوك الإنسان ، وردود الفعل عنده ، أعمق وأعقد من هذا بكثير.

هذه لفتة عابرة ، وددت أن أطمئن بها صديقنا **أبا عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى** ، وهو شاب واعد ، وباحث دءوب ، فى إشارته خلال بعض أعماله ، وللمانتشر[٣] ، إلى أن هذه الرواية « فرح بها المستشرقون ليدعوا أن أبا محمد كان مسيحيا غربيا ، ولم يكن فارسيا شرقيا ، ثم تلقفها بعض الببغاوات المعاصرين من العرب » وأودّ أن أذكره إلى أن الذى تلقّف هذه الرواية أوّلُ من اكتشف ابن حزم ، وأوّل من عرّف العالم به ، وبكتابه « طوق الحمامة » ، وهو المستشرق الهولندى رينهارت دوزى Dozy (١٨٢٠ - ١٨٨٣ م) ، وهو بروتستانتى ، ويجئ فى عداد المفكرين الذين يوصفون بأنهم مناهضون للكنيسة

(٣) جمع أبو عبد الرحمن أقوال المؤرخين والدارسين فى الإمام أبى محمد ، ابن حزم ، منذ عاش حتى يومنا ، فى أجزاء عديدة ، مرتبة تاريخياً وطبعها على « استنسيل » فى نسخ محدودة ، تفضل مشكورا فأهدانى نسخة منها ، والإشارة وردت فى تعليقه على نص ابن حيان أيضا . ودراسته هذه مع شيء من التهذيب والتشذيب والمنهجية ، يمكن أن تصبح شيئاً مفيداً للغاية .

anticlerical ، متحرر جدا ، وأنصف الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، ولم يقل عن ابن حزم إنه كان مسيحيا ، وكان ما هنالك أنه أول من وقعت عينه دارسا على كتاب « طوق الحمامة » فى عصرنا الحديث ، من العرب والأوربيين على السواء ، ووقف طويلا عند اعتراف مفصل مثير لابن حزم ، تضمن فى صراحة بيّنة خطاه الأولى فى عالم الحب ، وكانت مفاجأة مذهلة له ، انبهر بها ، وفقد معها توازنه العلمى ، فترجم القصة معجبا ، فى لغة فرنسية عذبة شفّافة ، أخذت طريقها إلى كل مختارات الأدب العالمى ، ثم عقب عليها بقوله :

« يلاحظ دون ما شك فى القصة التى انتهينا من قراءتها ملامح عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب ، الذين يفضلون ، بصفة عامة ، الجمال المثير ، والعيون الفاتنة ، والابتسامة الآسرة ، والحب الذى كان يحلم به ابن حزم يختلط ، دون ريب ، بما هو حسىّ جذّاب ، وعندما يكون الحبيب المنشود اليومَ غيره بالأمس ، يصبح الإحساس أقل قسوة ، لكن فيه أيضا ميْل إلى ما هو أخلاق ، من رقّة بالغة واحترام وحماسة ، وما يأسره جمال رائق وديع ، فيّاضٌ بالكرامة الحلوة ، لكن يجب ألاّ ننسى أن هذا الشاعر الأكثر عفّة ، وأكاد أقول الأكثر مسيحية ، بين الشعراء المسلمين ، ليس عربيا خالص النسب ، إنما هو حفيد إسبانى مسيحى ، لم يفقد كلّية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه ، وهؤلاء الإسبان المتعربون يستطيعون أن يهجروا دينهم ، وأن يبتهلوا بمحمد بدل المسيح ، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى فى الدين والوطن ، ولكن يبقى دائما فى أعماق أرواحهم شىء صاف رهيف وروحى ، غير عربى » .(٤)

من المؤكد أن هذه زلّة عظمى ، وأخطاء الكبار كبيرة ، وبداهة المقدمات على

---

(٤) Dozy, Histoir des Musulman d'Espagne, Tomo II, pag. 263, Trad. Espagnole, Buenos Aires 1940

فرض صحتها ، وهو أمر غير مسلم به ، لا تؤدى إلى النتائج التى انتهى إليها ، وقد ناقش القضية علمياً المستشرق الإسبانى الكبير **أسين بلاثيوس** ، وهو عاشقٌ لابن حزم ، وأبان فساد النتيجة التى انتهى إليها دوزى ، رغم تسليمه بأن انتساب ابن حزم فى فارس موطن شك كبير.

ولكن هذه قضية أخرى موطنها غير هذه المقدمة ! [٥] .

فإذا تجاوزنا ابن حيان إلى تلاميذ ابن حزم نلتمس عندهم لرسالتنا خبرا ، أو إشارة مجملة ، عز علينا الأمر تماما .

وأول هؤلاء التلاميذ **صاعد الطليطلى** ، قاضى طليطلة ، ووزير المأمون بن ذى النون أميرها ، المتوفى عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م ، ولو أن كتب التراجم لا تحدد لنا : متى ، وأين ، وأى المواد درس على ابن حزم ، وكل ما تقوله عنه أنه « روى عن أبى محمد » ، وألف كتابه « طبقات الأمم » يستدرك به ما فات شيخه فى كتابه « الفصل » ، وترجم له ترجمة وسطا ، أتى فيها على ذكر مؤلفاته إجمالاً ، فذكر أنها تدور حول الشعر ، وصناعة الخطابة ، وأصول الفقه وفروعه على المذهب الظاهرى ، والفقه والحديث والأصول ، والنحل والملل ، وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب » ، وذكر كتاب « التقريب لحدود المنطق » وحدده بالاسم ، ولم يشر إلى كتاب « الأخلاق » من قريب أو بعيد .

وبعده يجئ **الحميدى** ، تاريخاً لا أهمية ، صاحب كتاب « **جذوة المقتبس** ، فى ذكر ولاة الأندلس ، وأسماء رواة الحديث ، وأهل الفقه والأدب ، وذوى النباهة

---

(٥) ناقشنا القضية برمتها فى كتابنا : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الفصل : غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس ، الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

والشعر » ، المتوفى عام ٤٨٧هـ ١٠٩٥م ، وكان قد هجر الأندلس ، واستوطن بغداد ، وفيها لقى الله ، وأورد لشيخه ، وكان معجبا به ومفتوناً ، ترجمة لابأس بها ، ضمّنها نتفا من أخبار وأشعاره ، وأورد اسماء بعضاً من كتبه ورسائله ، وليس من بينها «كتاب الأخلاق» هذا .

وكذلك الشأن عن تلميذه الإمام الوزير أبى محمد بن العربى ، وصحب شيخه ابن حزم سبعة أعوام ، وسمع منه جميع مصنفاته ، وذكر منها « الفصل » و« الإيصال » ، ثم استدرك على نفسه : « وربما كان له شيء من تواليفه فى غير بلد ، فى المدة التى تجوّل فيها بشرق الأندلس فلم أسمعه » ، ومن الطبيعى إذن ألاّ يذكر كتاب الأخلاق ، لأنه من بين آخر ما حرّر ابن حزم من مؤلفات .

غيبة ذكر «كتاب أخلاق النفس» فى التراجم التى خص بها تلاميذ ابن حزم شيخهم لها تفسير واضح ، يدعم رأيى فى أنّ الكتاب آخر ما ألّف ابن حزم ، وإنه جاء فى شكل اعترافات ويوميات تعكس آراءه فى الحياة والناس ، جثمت على وجدانه وفكره زمناً ، فأزاحها عن عقله وقلبه تسجيلا ، فجاءت خواطر متناثرة ، تُقرأ وتُفهم وتُحفظ ، ولكنها لا تُدرّس للطلاب فى حلقات . وأضيف إلى ذلك أن الذين اشتهروا من تلاميذ ابن حزم ، وتركوا لنا مؤلفات وصلتنا ، وتحدّثوا عن شيخهم فيها ، هم الذين التفوا حوله فى أول حياته العلمية ، أستاذا نابها فى قرطبة ، وغيرها من كبريات المدن ، أمّا الذين اختلفوا إليه فى ضيعته ، حين لاذ بها زاهداً فى الدنيا ، راغباً عن كل ما عدا العلم ، فكانوا من « أصاغر الطلاب » ، على حد تعبير ابن حيان ، ولا نكاد نعرف أحداً منهم ، ولم أقع لهم على أثر .

كان ابن بسّام ، المتوفى عام ٥٤٢هـ = ١١٤٧م ، أول من نقل نصّ ابن حيان فى كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وتضمن مؤلفاته ، ومن بينها « كتاب أخلاق النفس » ، على حين صمت عنه معاصره الفتح ابن خاقان تماما ، فى مؤلفه

« **مطمح الأنفس** » ، وتضمن ترجمة قصيرة مسجوعة لابن حزم ، ربما لأنه وضع نفسه منذ البداية بين قيود السجع الضيقة ، فما اتفق معه جاء به ، وما جافاه نأى عنه ، ولعله – وهو الأرجح عندى – لم ير كتاب « المتين » ، فقد كان ابن خاقان ناثرا فنّانا ، وأديباً ذوّاقة ، لا صبر له على عناء البحث ، وتقصىّ التاريخ ، واستيعاب المؤلفات الكبيرة .

ويبدو أن كتاب « **المتين** » ، وهو أصل ما نقل ابن بسّام ، ضاع فى زمن مبكّر ، إذ كان ضخماً ، فى ستين مجلدا على ما تقول الروايات ، ومثله يغلو امتلاكه ، ويعسر حمله ، ويصعب الحفاظ عليه ، فى فترة تعاورتها الأحداث الرهيبة ، والفتن الهوج ، وبقى للناس كتاب **الذخيرة** ، ولكن مادته وأسلوبه وحجمه الكبير نسبياً لم تتح له أن ينتشر على نطاق واسع ، ومن ثمّ ظل المؤلفون فى جملتهم ، مشارقة وأندلسيين ، ينقلون ترجمة ابن حزم عن الحميدى ، أو صاعد الطليطلى ، على نحو ما نجد فى الصلة لابن بشكوال ، أو فى المعجب للمراكشى ، أو فى الإحاطة لابن الخطيب ، وهم لا يعرضون « **لكتاب أخلاق النفس** » . على حين أن الذين قرأوا « الذخيرة » ذكروه فيما أحصوا لابن حزم من مؤلفات ، وندع الذين لم يشيروا إلى الكتاب فهم كثير ، وذكرهم لا يفيد فى شىء ، ونمضى مع الذين أشاروا إليها ، وكلهم لا يتجاوزون إيراد عنوانها ، على نحو ما فعل ابن حيان .

أول من أشار إلى الكتاب من المؤلفين المشارقة **ياقوت الحموى** ، المتوفى عام ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م ، فى كتابه **معجم الأدباء** ، وكانت بين يديه مصادر جمة عن ابن حزم ، وخصّه بترجمة وافية ، وفيها نقل نص ابن حيان فى كتابه « المتين » ؛ نقلا عن « الذخيرة » فيما أتصور ، وذكر له « **كتاب أخلاق النفس** » بين ما عدّ من مؤلفاته .

ويجيء **الذهبي** ، الحافظ شمس الدين ، المتوفى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م ، بأطول ترجمة كُتِبت عن ابن حزم ، فى كتابه « **سير أعلام النبلاء** » ، والكتاب لمّا ينشر كله ، ولكن العالم الجليل الأستاذ **سعيد الأفغانى** إستل منه ترجمة ابن حزم ، ونشرها مستقلة بعد أن قدّم لها وعلّق عليها . وقد أورد لنا الذهبى مؤلفات ابن حزم مفصلة ، ان لم تكن كلها فالجانب الأكبر منها ، وكان حفيًّا بها ، ففصل بين المؤلفات الكبيرة والرسائل المحدودة ، ويشير أحيانا إلى أجزائها ، وحتّى عدد أوارق كل كتاب ، وذكر من بينها ، فى القسم الذى وقفه على الرسائل والأجزاء والكراسات ، كتاب « **السير والأخلاق (جزءان)** » .

وأول ما يلفت النظر هنا أن عنوان الكتاب أخذ صيغة جد مختلفة عن صيغته الأولى « **كتاب أخلاق النفس** » التى نجدها عند **ابن حيان** ، والذين ساروا على نهجه ، أما عند **الذهبى** فأصبح « **السير والأخلاق** » . فمن أين جاء بهذا العنوان ؟ . وماذا يعنى تعبير « جزآن » ؟ وما لدينا منه الآن جزء واحد ؟ . من الواضح أن مجئ الكلمة بين قوسين يوحى بأنها من عمل الذهبى ، فهل تراه يعنى أنه كان فى كراستين ؟ . هذا ما يغلب على ظنى ، لأن الذهبى صدّر جملة المؤلفات التى جاء بينها كتاب « السير والأخلاق » بقوله : « ومما له فى جزء أو كراس » ، ومع ذلك لم يستخدم كلمة كراسة أبدا ، واستعاض عنها بجزء . أتراه يستخدم الكلمتين بمعنى واحد ؟ ذلك أنّ « كتاب أخلاق النفس » صغير ، وموضوعه واحد ، ولم يشر ابن حزم فى مقدمته إلى أنه سيكون من جزئين ، وكان من عادته أن يحدد منهجه فى مقدمات كتبه .

أما تغيير الاسم فأراه من عمل الذهبى نفسه ، أو من ناسخ المخطوطة التى اطلع عليها ، أو من مؤلف المصدر الذى نقل عنه ، وفى هذه الحالة لن تكون رواية ابن حيان ، التى حفظها عنه ابن بسّام ، ولعل الذى قام به ارتآه أدق تعبيرا ، أو أخف

نطقا ، أو كان أقرب إلى مزاجه . لأن الكتاب مجموعة من الخواطر المتناثرة ، الجامعة لكثير من تجارب الحياة ، وتتسع لأكثر من عنوان .

ولكن المقَّرى التلمسانى المتوفى عام ١٠٤١ هـ=١٦٣٢م ، وحرّر كتابه « نفح الطيب » فى القاهرة ، يعود بالاسم إلى صيغته القديمة : « كتاب أخلاق النفس » ، رغم أنه قرأ ترجمة الذهبى لابن حزم ، مباشرة أو فى مصادر نقلت عنه ، واعتمد عليها ، ولكنه لم يشر إلى اختلاف الاسم ، أو إلى أنه جزءان . وقد يكون من المفيد أن أشير إلى أنّ هناك رسالة صغيرة من ثلاث ورقات ، تحمل عنوان : « رسالة فى النفس » ، كُتِبَتْ فى أول القرن السادس الهجرى ، ولمّا تزل مخطوطة ، ولكن لا صلة لها بموضوع كتابنا[١] ، وإنما هى إلى المباحث الفلسفية وما وراء الطبيعة أقرب .

● مخطوطات الكتاب :

لا نعرف لكتاب « أخلاق النفس » مخطوطات فى مكتبات عامة غير واحدة ، توجد فى مكتبة شهيد على بالآستانة ، ضمن مجموعة رسائل لابن حزم[٢] ، تحت رقم ٢٧٠٤ ، وتوجد مصوّرة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ويرجع تاريخ نسخها إلى القرن التاسع الهجرى ، أى الخامس عشر الميلادى ، وكُتِبَتْ فى خط نسخى جميل ، ويقع المخطوط فى ٢٦٥ ورقة من الحجم الكبير ، ويحتوى على الرسائل التالية مرتبة حسب ورودها فى المخطوطة .

١ – رسالة فى الأصول والفروع من أقوال الأئمة .

٢ – رسالة البيان عن حقيقة الإيمان .

٣ – رسالة فى معرفة النفس بغيرها ، وجهلها بذاتها .

٤ – رسالة الدرّة فى تحقيق الكلام فيما يلزم الإنسان اعتقاده .

٥ – رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق .

٦ – رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى .
٧ – رسالة فى الرد على الهاتف من بعد .
٨ – رسالة فى مسألة الكلب .
٩ – رسالة فى الجواب عما سئل عنه سؤال تعنيف .
١٠ – رسالة فى مداوة النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والزهد فى الرذائل .
١١ – رسالة فى الإمامة .
١٢ – رسالة فى ألم الموت وإبطاله .
١٣ – رسالة فى الجواب عن حكم القول بأن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين .
١٤ – رسالة فى الغناء الملهى : أمباح هو أم محظور .
١٥ – رسالة التلخيص لوجوه التخليص .
١٦ – رسالة فى مراتب العلوم .

وتنقطع الرسائل عند هذا الحد ، دون أن تتم ، وكان يجب أن تليها « **رسالة فى الوعد والوعيد ، وبيان الحق فى ذلك** » ، **كتبها إلى الأمير أبى الأحوص معن بن محمد** ، أول من استبد بالمرية من بنى صمادح .

وقد نشر **الدكتور إحسان عباس** جل هذه الرسائل ، ويهمنا من بينها « **رسالة فى مداواة النفوس** » ، وسنعود إلى الحديث عنها حين نعرض لمطبوعات الكتاب .

وتصورت بدءا أن مخطوطة الآستانة هذه ليست الوحيدة ، لأن مطبوعة القاهرة الأولى تعتمد على مخطوطة أخرى ، مختلفة العنوان ، دقيقة النسخ ، واضحة الخط ، بريئة من الأخطاء ، سليمة الصفحات ، ولو أن النص فيهما واحد دون زيادة أو نقصان . وبدأت أبحث عن هذه المخطوطة فى مظانها المختلفة ، فتشت عنها فى دار الكتب المصرية فلم أقع لها على أثر ، وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول

العربية فلم أجد غير مخطوطة الآستانة تلك ، وفى فهارس المخطوطات العربية المنتشرة فى العالم فلم أجد لها ذكراً .

ولمّا كان أوّل ناشرٍ لها فى مصر عالماً من الأزهر ، فقد اتجهت إلى مكتبة الأزهر نفسه ، فلقيت من الصعوبات ، ومن سوء معاملة صغار الموظفين ما صدّ نفسى ، وصرفنى عن الترّدد عليها ، وكانت مثلا حيًّا على أن الأزهر جامعاً وجامعة يعيش أسوأ حالاته ، فلا هو أبقى على تقاليده القديمة الطيبة الجميلة ، فى خدمة العلم وتوقيره ، واحترام طلابه ومعاونيهم ، ولا هو لحق بالعالم المتقدم فنظّم أموره ، وأحكم إداراته ، وإنّما شيء لا لون له ولا طعم ، يقع فى منتصف الطريق بين الجهل والإهمال . وكم أتمنى على شيخ الأزهر أن يرسل بعثة من القائمين على مكتبة الأزهر لا إلى أوربا ، وإنما إلى دير الآباء الدومنيكان على حافة القاهرة ، فى صحراء العباسية ، على بعد ثلاث كيلو مترات من الأزهر نفسه ، ليتعلموا كيف تدار المكتبات ، وكيف يلقون المترددين عليها .

وكانت وجهتى الثانية أن ناشر الكتاب شامى من بيروت ، من عائلة المحمصانى الشهيرة فيها ، وللشام رواق فى الأزهر ، كان عامراً ، ولاتزال فيه بقية من حياة ، فلعلى واجد فى سجلاته شيء عنه . وكان للأروقة نفسها مكتبات ضخمة ، تضم أعداداً كبيرة من الكتب ، بينها من الذخائر والنوادر شيء ليس بالقليل ، فلعل بعضها باق إلى يومنا هذا . ويبلغ عددها فى القرن الماضى ، ومطلع هذا القرن ، واحداً وثلاثين رواقاً ، وكانت مكتبة رواق الأروام ، ويقال له رواق الأتراك ، تضم ٥٠٥١ مجلداً ، ومكتبة رواق المغاربة ٣٣٨٦ مجلداً ، ويليها رواق الشام وبها ٢١٠٠ ، ثم رواق الأكراد ١١٩٧ ، ثم رواق الصعايدة وبها ١١٩٠ ، وكذلك بقية الأروقة ، وكلها من المخطوطات . وبعض هذه المكتبات ضاع عبر الزمن ، وبعضها ضم إلى مكتبة الأزهر ، مثل مكتبة رواق الصعايدة وضُمت إليها عام

١٩٣٦ ، ومكتبة رواق الأحناف وضُمت إليها عام ١٩٥٦ ، وتمسك أهل أروقة المغاربة والأتراك والشام بمكتباتهم عملاً بشروط الواقفين .

وبدأت أتردّد على رواق الشام ، ولكن حتى تحرير هذه المقدمة لم أجد عند أحد من الطلاب قاطنيه جواباً لسؤالى ، ولا من إداراته من يمكننى من البحث فى مخطوطاته ، غير أنى علمت أن **هيئة اليونسكو** العالمية أرسلت عام ١٩٦٣ بعثة إلى **القاهرة** لتصوير نوادر المخطوطات فيها ، وكان بين ما صوّرته المخطوطات النادرة فى مكتبات الأروقة الأزهرية . وأندر ما وقعت عليه فيها **مخطوطة الأخلاق والسير لابن حزم** ، **وكُتِبَتْ فى القرن الخامس الهجرى** ، أى بعد وفاة مؤلفها بقليل ، ولعلّها أقدم نص لها بين أيدينا الآن .

وقد تكون للكتاب مخطوطات أخرى فى زوايا شمال أفريقيا ، فى تونس والمغرب منه بخاصة ، لأن أفكار الرسالة مما تعشقه نفوس الطيبين من المسلمين ، والزاهدين من العلماء ، وممن حصّلوا قدراً من الثقافة يتيح لهم أن يفهموا معناها ، وأن يقعوا على غايات مؤلفها ، فى المكتبات العامة التى لم تفهرس بعد ، وفى المكتبات الخاصة التى تتوارثها الأسر ، ومن يدرى فقد يكون لها أكثر من مخطوطة فى مكتبات الآستانة لم يصلنا خبرها ، وإليها نقل خلفاء بنى عثمان كل نوادر مخطوطات العالم العربى .

● الكتاب مطبوعا :

طبع كتاب « **الأخلاق والسير**» للمرة الأولى فى القاهرة ، عام ١٣٢٥ هـ=١٩٠٨م ، ولو أن طبعته نفسها لا تحمل تاريخاً ، وقام على طبعه ، و« اعتنى بتصحيحه ، وضبط كلماته اللغوية ، وشرح بعضها » ، **أحمد عمر المحمصانى الأزهرى** ، وعنوانه كاملاً : **«كتاب الأخلاق والسير فى مداواة**

النفوس » ، وطُبعَ فى مطبعة السعادة بجوار ديوان محافظة مصر ، وجاء الكتاب فى ١٠٦ صفحة من القطع المتوسط ، وقدّم له بمقدمة موجزة للغاية ، لا تتجاوز الصفحة ، ولكنها تعكس وعيه الكامل بأهمية الكتاب ، فهو يقول فى المقدمة :

« أما بعد ، فقد أظفرنى الله بهذا الكتاب الجليل الممتع ، الجامع لما يلزم معرفته والتخلق به من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب والحكم . وقد جمع فيه مؤلفه ، رحمه الله ، معانى كثيرة ، استفادها بمرور الأيام وتعاقب الأحوال ، بما منحه الله عزّ وجلّ ، وقد أنفق فى ذلك أكثر عمره ، فهو نتيجة اختبار جليل ، وبحث عظيم ، وابتدأه بمداواة النفوس وإصلاح الأخلاق ، لما يترتب عليهما من المنافع الجمة ، والأوصاف المهمة ، وترى المؤلف فى بعض الأبواب يذكر مداواته لنفسه ، ويعرّف المطالع كيف يأخذ فى اكتساب الفضائل حتى يتحلى بها ، وكيف يعمل فى اقتلاع جذور الرذائل حتى يتخلى عنها ، فيكون إنسانا كاملاً ، وعضوا فى الهيئة الاجتماعية عاملا ، فلذا رأيت أن أتحف به قراء العربية ، لينتفعوا بما اشتمل عليه ، وليتذكر أولو الألباب » .

ثم ترجم لابن حزم ترجمة موجزة ، نقلها عن صاعد الطليطلى والحميدى ، وهما من تلاميذ ابن حزم ، وعدّد مؤلّفاته ، التقطها من كتب التاريخ المختلفة التى عرضت له ، وذكر أنه اعتمد فى حصرها على كتاب الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتمس للضبى ، ووفيات الأعيان لابن خلّكان ، ومن مجلة المقتبس لمنشئها محمد أفندى كرد على ، ومن كتاب آثار الأدهار . وذكر لابن حزم رسالة بينها بعنوان « أخلاق النفس » ، وهى تختلف عن كتاب الأخلاق الذى بين أيدينا ، وأخذت عناوين مختلفة ، وأشرنا لها من قبل .

ولا يخالجنى أدنى شك فى أن أحمد عمر المحمصانى اعتمد فى نشر الكتاب على مخطوطة كتاب رواق الشوام فى الأزهر ، فنحن لا نعرف للكتاب مخطوطة أخرى فى

مصر حتى هذه الساعة ، إلى جانب أن المحمصانى نفسه أزهرى وشامى من بيروت ، وأرجح أنه كان يقطن رواق الشام ، فى البدء طالب علم ، وظل كذلك أمداً طويلاً على طريقة الأزهر القديمة ، تقرباً إلى الله ، وتمكناً من العلم ، وليس طلباً لشهادة معينة ، أو سعياً وراء عاجل من عرض الدنيا ، وأن بقاءه امتد فى القاهرة ، ولعل مشيخة الرواق انتهت إليه ، فاطلع على مخطوطاته ، واغتنمها فى القراءة والتأليف ، لأننا نجد له كتابا آخر فرغ من تأليفه بعد أن نشر رسالة ابن حزم ، وهو : « تحذير الجمهور من شهادة الزور » ، ونشره عام ١٣٢٧ هـ = ١٩١٠ م .

والحق أن نَشْر المحمصانى للكتاب جاء عملاً رائعاً ، رغم جهله بقواعد التحقيق ومنهجه نظرية ، فالنسخة دقيقة ، لا أخطاء فيها ولا غموض ، ولا اضطراب فى نصها ولا قلق ، وبريئة من الأخطاء المطبعية ، وهو ما نعانى منه الآن ، ولا نجد فيها كلها إلا خطأً مطبعيًّا واحداً ، فقد سقط من الجملة التالية ، فى صفحة ٤٧ ، حرف لا ، وهى : « فنقول وبالله التوفيق كلاما لا يحض إلاَّ على المسامحة » ، وهو خطأ يمكن للقارئ المتمعن أن يدركه فى يسر ، وقد أحس به أسين بلاثيوس وهو يترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية ، ونبه إلى أن الجملة لا تستقيم كما هى ، وصوبها على النحو التالى : « فنقول وبالله التوفيق كلَّ ما يحض إلاَّ على المسامحة » ، وهذا المعنى قريب من ذاك .

والتزم الناشر نص المخطوطة فى تقسيمها إلى فصول ، حتى أن بعضها جاء فى نهاية فصل ، ولم يأخذ عنواناً ، وليس وراءه إلاَّ سطور ، فأبقاه على حاله . وفسر بعض الكلمات الغريبة التى جاءت فى النص ، وأهمل كثيراً منها ، ربما لأنها فى أيامه لم تكن تعدّ من الغريب ، وكان القراء علماء فى جلّهم ، ولهم ينشر المؤلفون والمحققون ، فلم تكن القراءة شيئاً شائعاً بين جمهرة الناس وفى كل الطبقات ، وأهمل التعريف بالأعلام الواردة فيها ، ولم يشر إلى المخطوطة بكلمة واحدة .

نحن إذن ندين بمعرفتنا لهذه الرسالة إلى أحمد عمر المحمصانى ، فقد أدّى هذا العالم التقى واجبه ، وأنقذ إحدى ذخائر الفكر الإسلامى ، وذهب لا يكاد يذكره أحد ، ولولاه لظلت سرًّا مكتوماً ، ولربما ضاعت مخطوطتها الفريدة هذه مع ما ضاع من مخطوطات لا تُقدَّر بثمن . رحمه الله ، وأوسع له من مغفرته ورضوانه .

كان إقبال الناس على الكتاب عظيما فيما يبدو ، فقد ظهرت له فى القاهرة **طبعة ثانية** بعد عامين فقط من صدور الطبعة الأولى ، لا تحمل تاريخاً ، وأرجح أنها صدرت عام ١٩١١ ، نشرها الكتبى **محمد أفندى أدهم** ، وجاءت فى ٧٨ صفحة من الحجم المتوسط ، وعنوانها على الغلاف الخارجى يختلف عنه فى الصفحة الأولى من الداخل ، فهو فى الأولى : « **فلسفة الأخلاق المسماة مداواة النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والبعد عن الرذائل لابن حزم** » . أما الثانية فهو « **مداواة النفوس ، وتهذيب النفوس ، والزهد فى الرذائل** » . وقد بدا لى فى البدء أن ناشره لم يستهدف به عملاً علمياً ، وأن غايته تجارية خالصة ، ولم يرع فى إخراجه أمانة ولا دقة ، ولم ينقل عن أصل مخطوط ، وإنما دفع بنسخة المحمصانى إلى المطبعة ، دون أن يعنى بها ، فجاءت أى شىء ، اضطرب النص بين يدى العمال ، فسقطت منه فقرات بأكملها ، وانتقلت أخرى إلى غير موضعها ، وألقى بجمله أكواما فوق بعض ، لا تفصل بينها علامات ترقيم ، ولا تجىء أفكارها فى فقرات مستقلة ، وخلت من الضبط والتفسير اللغوى تماماً . ولكنى وجدت العنوان الخارجى الذى حمله الكتاب يتفق تماما مع عنوان مخطوطة الآستانة ، وبعيد عن التصور ، ولو أنه ممكن ، أن يجئ العنوان من اختيار الناشر ثم يتفق تماما مع عنوان مخطوطة لم يرها ، ومن ثَمَّ رجح عندى أن محمد أفندى أدهم اعتمد على مخطوطة أخرى غير دقيقة ، انتهى بها المطاف الى مكان نجهله .

وحول هذا التاريخ ، وقبل عام ١٩١١ على التأكيد ، طبعت رسالة ابن حزم

للمرة الثالثة فى مدينة الإسكندرية ، وقام على نشرها **على أفندى الخطاب** ، الكتبى الشهير بجوار أجزخانة المعارف بالسكة الجديدة بالإسكندرية ، ولا نعرف لها تاريخاً محدّداً ، وما انتهت إليه فى البدء كان استنتاجاً منى ، وعَنْوَنَ لها : « **فلسفة الأخلاق لابن حزم الأندلسى ، وتليها كلمات قاسم بك أمين** » . وقدّم لها على محمود الخطاب نفسه بمقدّمة من صفحة ونصف ، وجاء فيها :

« تصفّحت كلمات ابن حزم فاتخذتها لى سميراً ، وصرت كلما سنحت لى فرصة من الوقت أتردد على مطالعة مقاله الحكيم ، وأنا شديد الإعجاب بهذا الرجل وجرأته فى تحرّى الحقيقة ، فعزمت على طبع كلماته ليكون لى يد فى نشر أفكاره ، إلى أن جمعتنى الظروف يوما بأديبين فاضلين فخطر لى أن أخطرهما بعزمى على طبع حكم ابن حزم فارتاحا وأظهرا لى الرغبة فى ذلك ، ثم ألفتنى أحدهما إلى كلمات النابغة الحكيم المرحوم قاسم بك أمين ، وقال لى فى سياق حديثه : إن كلمات ابن حزم على مكانة متينة من الحزم ، وقاسم أمين ليس بأقل منه ، وحبذا لو جمعتهما فى كتاب واحد ، فوقع ذلك عندى موقع الاستحسان ، ولكنى أرجأت ذلك حتى أقرأ كلمات قاسم ، وكنت أسمع من ألسنة الناس أن قاسما رجل غير مصلح ، ولكن حالما قرأت كلماته ذهب الغشاء عن بصرى ، فرأيته رجلا أبرزته الصدف فى العالم ، ليكون كالحكماء أسلافه » .

يمثل هذا النص كل مقدمة الناشر ، فلم يسبقه غير الفاتحة العادية ، من البسملة والحمدلة والدعاء ، وسطوراً جاءت خاتمة له ، مدح فيها قاسم أمين ، وهذا الكتبى نموذج حىّ للوراق العربى فى العصر الوسيط ومطلع هذا القرن ، فهو إلى جانب بيع الكتب على شىء من ثقافة يُتيح له أن يفرّق بين الغث والثمين من المؤلفات . ولكنه تركنا فى غموض وحيرة ، فنحن لا نعرف أين قرأ نص ابن حزم هذا : فى مخطوط أم مطبوع ، وعن أيهما نقل ، وأين توجد مخطوطته . إن

كان ينقل عن مخطوط ، ولأى ناشر قرأ إن كان ينقل عن مطبوع ؟ . هذه أسئلة لا أجد لها جوابا ، ولا أرجّح أىّ جانب منها ، ولكن شيئا مؤكدا منها يمكن الجزم به ، إذا صدقنا القول ، أنّه أول من ضم حكم وكلمات قاسم أمين إلى خلاصة تجارب ابن حزم .

والحق أن كلمات ابن حزم وقاسم أمين تلتقى فى الغاية والدافع ، وتختلف فى شيء من الأسلوب والأفكار ، وتصلحان للدرس والموازنة ، وهو ما سأعود إليه فى قابل الأيام .

الخلاف بين طبعة خطاب وطبعة المحمصانى لا يتجاوز الأخطاء المطبعية ، والاختلاف فى عنوان الكتاب ، وما يحدث من الاعتناء بالطبع أو إهمال يقع فيه ، ومن الحرص على سلامة النص وكماله أو التجاوز عن ذلك ، ويصعب علىّ فى غيبة الشواهد أن أرجّح : هل كان ينقل عن طبعة المحمصانى أو عن أصل مخطوط نجهله ، فهو ورّاق مثقف فيما أرى ، وكانت الإسكندرية منذ أن استقر المسلمون فى الأندلس مهبط حجّاجه ، وموئل علمائه ، واستقر بأرضها بعض أوليائه ، وترك الجميع فى حياتها آثارا مادية وفكرية حتى يومنا هذا ، فهل كانت مكتبة بلدية الإسكندرية ، أو مكتبات المساجد ، أو المكتبات الخاصة ، تضم مخطوطة لكتاب ابن حزم لم تصل إلى أيدينا ؟ . ربما ! .

وقد جاءت طبعة الإسكندرية هذه فى ٧٩ صفحة ، من الحجم المتوسط ، شغلت رسالة ابن حزم منها الصفحات ٤ – ٤٧ ، وكلمات قاسم أمين الصفحات ٤٨ – ٧٩ .

وصدرت **الطبعة الرابعة** فى القاهرة بعد طبعة الاسكندرية بعامين ، أى فى سنة ١٩١٣ ، عن **مطبعة الجمالية** ، وكانت نقلاً عن طبعة الإسكندرية ، فيما أرجح ، فقد تضمنت نفس كلمات قاسم إلى جانب نص ابن حزم ، وأعطاها الناشر

عنوان : « **كلمات فى الأخلاق أو مداواة النفوس** » . وجاءت فى ١٠٨ صفحة من الحجم المتوسط ، شغلت منها رسالة ابن حزم الصفحات ٢ – ٥٣ ، والباقى تضمن كلمات قاسم أمين ، ولم يشر الناشر إلى الأصل الذى نقل عنه ، مخطوطاً أم مطبوعاً ، ولكن الموازنة ترجح أنه اعتمد على طبعة الإسكندرية ، وأضاف إلى أخطاء تلك المطبعية أخطاءه المطبعية ، ولم يستدرك عليها شيئاً .

وهناك **طبعة خامسة** قام بها **محمد هاشم الكتبى** ، بمصر أو دمشق ، صدرت عام ١٣٢٤هـ=١٩٠٦م ، أشار إليها الدكتور إحسان عباس فى « رسائل ابن حزم » التى سوف نشير إليها فيما بعد ، ولم أرها رغم بحثى عنها ، وأشك أنها صدرت فى القاهرة ، لأن طبعة المحمصانى هى أول طبعة لرسالة ابن حزم فى القاهرة ، فإذا صحّ أنها نُشرت فى **دمشق** فإن ذلك يفتح الباب أمام احتمال أن عاصمة بنى أمية كانت تملك أيضا مخطوطة من «**كتاب الأخلاق والسير**» فى مكتباتها العامة أو الخاصة ، والخبر فى جملته موضع شك عندى .

ويصمت الطابعون والناشرون عن كتاب ابن حزم طوال سنوات الحرب العالمية الأولى ١٩١٤–١٩١٨ ، وهو أمر طبيعى ، فقد عزّت أدوات الطباعة ، واشتد الغلاء ، وركدت الحال ، وتوقفت وسائل المواصلات بين مصر والعالم العربى ، ولها وله كانت تكتب وتطبع وتنشر ، فلما انتهت الحرب تفجرت ثورة ١٩١٩ العظيمة ، وشُغِل المصريون بهموم جديدة ، حتى إذا تجاوزنا عام ١٩٣٠ ، سوف يعود له الناشرون من جديد ، ولم تتوقف طبعاته بعدها على نحو تجارى ، وفى صورة لا تتفق وأهمية الرسالة وروعتها .

وفى عام ١٩٣٣ بدأ ثلاثة من الشبان المصريين فى القاهرة : أحمد الشنتناوى ، وإبراهيم زكى خورشيد ، وعبد الحميد يونس ، يترجمون دائرة المعارف الإسلامية ، وكان المستشرقون قد أخذوا فى إصدارها منذ عام ١٩٠٨ ، وقرأ

الناس فيها مقالاً ممتعاً عن ابن حزم كتبه أرندنك Arendonk وأشار فيه إلى أن المستشرق هـ. ريتر H. Ritter اكتشف مجموعة مجهولة من رسائل ابن حزم ، مجموعة فى مجلد ، وتوجد فى مكتبه مسجد الفاتح باستانبول رقم ٢٧٠٤ . وفيا بعد قام المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس بدراسة هذه المجموعة ووصفها فى مقال نشره عام ١٩٣٤ . ولما أنشىء معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بدأ فى تصوير نوادر المخطوطات العربية فى العالم ، ومن بينها مجموعة رسائل ابن حزم ، ثم أصدر الجزء الأول من فهرسة المخطوطات المصورة عام ١٩٥٤ ، وتضمن تعريفاً بهذه الرسائل .

وقد وقع الدكتور إحسان عباس على مصوّرة هذه المخطوطة فى معهد المخطوطات ، فنشر مجموعة منها بعنوان « **رسائل ابن حزم** » فى القاهرة عام ١٩٥٤ ، وهذا التاريخ استنتاج منى ، لأن الكتاب لا يحمل تاريخاً ، ومن بينها كتاب الأخلاق والسير ، وأعطاه العنوان الذى وجده فى المخطوطة وهو : « **رسالة فى مداواة النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والزهد فى الرذائل** » ، وهو العنوان الذى نجده فى الطبعة الثانية ، التى نشرها الكتبى محمد أفندى أدهم ، وأشرت إليها فيما سبق .

لكن الدكتور إحسان عباس ، وقد وقع على مخطوطة نادرة كان عجلاً من أمره ، فتجاوز عن بعض قواعد التحقيق ، وحين غمت عليه بعض الكلمات أجرى قلمه غليها تعديلاً ، ولو استأنى قليلاً ، وعاد إلى النسخ المطبوعة لعاد بها إلى أصلها ، ولما وقع فى التحريف ، لأن المخطوطات لا تعنينا فى مضمونها وأفكارها فحسب ، وإنما يهمنا منها أيضا لغتها ، وأسلوب كاتبها ، وطريقة التعبير عنده ، وحتى نهجه فى رسم الكلمات ، وسأضرب لذلك مثلين فحسب :

فى الأصل ، من المقدمة جملة « من التهمم بتصاريف الزمان » ، وبدلا من

« التهمم » جاءت فى مخطوطة الآستانة « التهم » ، فأصلحها الدكتور إحسان عباس « الفهم » ، والبون واسع بين المعنيين ، واللفظين .

وفى المقدمة أيضا ، بعد ذلك بسطرين ، جملة « وزممت كل ما سبرت » ، لم يفهم معناها فأصلحها « ورقمت » ، والمعنى الأول واضح ، ولفظه أدق تعبيرا عما يريد أن يقوله المؤلف ، وأقرب إلى معجمه ، وهكذا ...

ثم اعتمد على معجم المطبوعات لسركيس ، وصدر فى القاهرة عام ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م ، حين ذكر أنها طِبعَتْ ثلاث مرات ، والحق أنها طُبِعت خمس مرات قبل أن ينشر سركيس معجمه ، وخمس مرات أخرى بعده ، وقبل أن ينشرها الدكتور إحسان . وإذا كانت كل هذه الطبعات ليست بذات أهمية ، فإن طبعة المحمصانى لا يصح تجاهلها ، لسلامتها ، ودقتها ، ولأن المخطوطة التى اعتمدت عليها من أقدم المخطوطات . وأشير إلى أنه أورد اسمه خطأ ، فذكر أنه الشيخ عمر المحمصانى ، وهو أحمد عمر ، ونسب إليه أنه ذكر عن نسخته « أنّ فيه زيادات على الطبعة الأولى » ، ولم يشر المحمصانى إلى شىء من هذا .

وهى مآخذ لا تقلل بحال من أهمية العمل الذى قام به الدكتور إحسان عباس ، لأن الإقدامَ على نَشْر أية مخطوطة معاناة لا يعرف أهوالها إلاّ من اقتحم عالم المخطوطات فعلاً ، وحاول أن يكون فيه أميناً ودقيقاً ، فلا أحد يعينك ممن عندهم المخطوطات ، أو القائمين على شئون المكتبات العامة ، إلاّ من عصم الله وقليل ماهم ، وبعضهم يتعمد تضليل الباحثين فيقدم لهم معلومات خاطئة ، أو ناقصة ، فى وثائق رسمية ، يتقبلها الباحث بنية طيبة ، ثم يتبين له أنه ذهب ضحية التغرير ، وأبسطها فيما يتصل برسالتنا هذه ما نجده فى الجزء الأول من فهرس المخطوطات العربية المصورة ، ص ١٢٨ ، رقم ١٣٣ ، وأصدره معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية نفسه ، بتصنيف فؤاد السيد ، أمين المخطوطات بدار الكتب

المصرية ، فقد أورد تعريفاً لمجموعة رسائل ابن حزم هذه ، وصوّرها عن مكتبة شهيد على ، وأعطى لها وصفاً يتضمن حجمها ، وعدد أوراقها ، وذكر أنها « مجموعة رسائل تحتوى على : ... » ، وعدّد الرسائل التى تضمها المجموعة ، ولكنه أسقط منها عامداً رسالتين هامتين ، أولاهما : رسالة ابن حزم فى الرد على ابن النغرلّة اليهودى ، والثانية : رسالته فى الإمامة . والمؤسسة رسمية ، والفهرس المطبوع أصدرته هيئة رسمية محترمة ، ولك أن تتصور ما يمكن أن يقع فيه الباحث من أخطاء ، إذا اعتمد عليها ، وعلى مثلها .

● **الكتاب فى اللغات الأجنبية :**

يعتبر ابن حزم آخر من عرفته أوربا من عمالقة الفكر الإسلامى ، رغم أصالة منهجه ، وخصوبة فكره ، وعالمية أفقه ، وسعة معارفه ، وتنوّع أبحاثه ، لأن لدده فى الخصومة ، وعنفه فى الحوار ، واعتزازه بنفسه ، ونقده لكل المذاهب والفرق والأديان ، حاشا الإسلام ، جعل هؤلاء جميعاً يردّون له الصاع صاعين عند ما واتهم الفرصة ، فلم يُترجم من أبحاثه ومؤلفاته شىء طوال العصر الوسيط ، ومرّ به المترجمون ، وجلهم من اليهود ، وبقيتهم من النصارى والمسلمين المحافظين ، وكأنه ما أبدع شيئاً ، ولا قال مفيداً . وترك هذا بصماته واضحة فى عصرنا الحديث فلم يظهر اسمه أبداً فى مدونات تاريخ الفلسفة العام ، وحتى زمن قريب قلّة من المتخصصين فحسب خصته بسطور قليلة موجزة فى مؤلفاتهم ، لا تكاد تعكس إلاّ على نحو غائم ومهلهل وعام ، منهجة فى العقيدة والتشريع .

لقد مرّ س . مونك S. Munk بابن حزم فى صمت مريب عندما نشر كتابه عن « كبار الفلاسفة العرب ومذاهبهم » ، فى سلسلة « دراسات عن فلاسفة اليهود والعرب » ، وصدر فى باريس عام ١٨٥٩ ، وظهرت منه طبعة ثانية فى

المدينة نفسها عام ١٩٢٧ . وكان رينهارت دوزى أول من انتبه إليه من المستشرقين فى كتابه عن « تاريخ مسلمى إسبانيا » ، وصدرت الطبعة الأولى منه فى ليدن عام ١٨٦١ ، وفيه رسم صورة واضحة للملامح ابن حزم البارزة ، وأفاد على نحو طيب من كتابين لابن حزم كانا مجهولين تماماً حتى ذلك التاريخ ، وهما : طوق الحمامة ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وكان دوزى أول من أزاح النقاب عنهما .

وبعد ذلك توالت دراسات المستشرقين له ، فدرسه جولد تسيهر بوصفه فقيهاً فى الدراسة التى خصّ بها المذهب الظاهرى ، ونشرها فى ليبزج عام ١٨٨٤ ، ووضعه بين أشد المدافعين عن المذهب ، ودرس على نحو مفصّل رسالته المسمّاة « إبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » ، ثم توالت دراستهم عنه بوصفه فقيهاً ظاهرياً ، وإذا استثنينا بعض الفصول التى تُرجمت بتصرّف من كتاب « الفصل » ليدعم بها الباحثون الأوربيون آراءهم ، فحتى عام ١٩١٦ لم يكن قد ترجم لابن حزم أىّ كتاب كاملاً إلى أية لغة أوربية .

أمّا أوّل ترجمة لمؤلف كامل من أعمال ابن حزم فقام بها المستشرق الإسبانى أسين بلاثيوس ، (١٨٧١ - ١٩٤٥) ، لكتاب « الأخلاق والسير ومداواة النفوس » ، وقام بها معتمداً على طبعتى المحمصانى والجمالية ، وصدرت ، عن « جمعية تشجيع الدراسات والبحوث العلمية » ، مركز الدراسات التاريخية ، فى مدريد عام ١٩١٦ ، بعنوان :

Los Caracteres y la Conducta. Tritado de Moral práctica, por Ambenhazam de Córdoba

وجاء النص المترجم فى ١٦٥ صفحة من القطع المتوسط ، نفس الحجم الذى نشر فيه الكتاب بمصر إذ ذاك ، وصدّره بمقدمة جاءت فى ٣١ صفحة ، تحدث

فيها عن المؤلف والكتاب ، وألحق بالترجمة فهارس للأعلام وكشافا تحليليا للموضوعات .

لم يكن بلاثيوس وهو يترجم الكتاب مستشرقاً عادياً ، فقد تخصص فى الفلسفة الإسلامية بعامة ، والجانب الأندلسى منها بخاصة ، وخص ابن حزم بأعظم دراسة له نعرفها حتى الآن ، فى أية لغة ، بما فيها اللغة العربية ، وشغلت الجزء الأول كاملا من ترجمته لكتاب « الفصل » ، وجاءت فى خمسة أجزاء ، وصدرت فى مدريد عام ١٩٢٧ – ١٩٣٢ ، وترجمناها إلى اللغة العربية ، وهى فى طريقها إلى النشر. وترجمته لا بأس بها إذا أخذنا فى الحسبان بلاغة ابن حزم ، وأفكاره المكثفة ، وأنها أول ترجمة يقوم بها لكتاب كامل ، ولذلك ندت منه هفوات لا تقلل من قيمة عمله ، كغفلته عن « ابن نوح » ، و « والد إبراهيم » ، وظنه أنهما كنيتان ، وأنهما من أقارب النبى ، ولم يفطن إلى أن المراد نوحاً وإبراهيم النبيين الواردين فى التوراة والقرآن ، وقصتهما ، الأول مع ابنه والثانى مع أبيه ، معروفة ، وأشرنا إلى ذلك فى موضعه من نص الكتاب .

وكذلك أفلت منه المعنى الدقيق لبعض الجمل ، لأن معرفة اللغة وحدها لا يكفى فى الإمساك به ، فقد ترجم هذه الجملة : « كثرة المال ترغب ، وقلته تقنع » على النحو التالى :

Se desea poseer grandes riquezas, y Con bien poco basta

ومعنى هذه الجملة : « ترغب فى المال الكثير ، ولكن قليلة يكفى » ، وابن حزم لا يريد هذا المعنى ، أنما يود أن يقول بجملته تلك : إن كثرة المال تغرى صاحبه بالاندفاع فى جمعه والإكثار منه ، وقلته تكسبه قناعة ورضى ؛ ولم يستطع أن يصل إلى معنى جملة : « كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه » ، ففهم العين على أنها الجاسوس ، وهو من معانيها فعلا ، ولكنه لا يستقيم هنا ، وأدرك أن

الأمر لا يتأتى ، فعلّق على الجملة فى الهامش بأنها غامضة وبأن المعنى المراد منها يمكن أن يكون : « الذين يحسون بأنهم موضع تجسّس يهتمون أكثر ، ويثابرون فى أعمالهم حتى لا يفشلوا » ، وما أبعد هذا عما أراده ابن حزم ، لقد أراد معنى بسيطاً جدا ، أوجزه المثل العربى : « زُرْ غِباً تَزْدَدْ حبًّا » ، أى أن كثرة تردّد المرء على مكان ، أو جماعة ، يجعلهم يزهدون فيه .

وذلك كله لا يمس قيمة الجهد الكبير الذى قام به بلاثيوس ، ولا يقلل من الروعة والجمال والبساطة التى صب فيها أفكار ابن حزم ، فأتاح للقارئ الإسبانى العادى ، غير المتخصص ، أن يجد فيها متعة ، وأن يقع منها على خير ، ولو أن الكتاب لم تطبع ترجمته ثانية ، ولم يخرج من مجال المتخصصين إلى الطبعات الشعبية التى تتجه إلى عامة المثقفين ، وإنه لجدير بأن يأخذ مكانه بينها .

وقد وشّى بلاثيوس الترجمة بكثير من التعاليق المفيدة ، ولكنه أسرف على نفسه وعلى الحقيقة حين حاول أن يرد كثيراً من الأفكار المتصلة بالفضيلة إلى الأنجيل ، لأن الخطوط العامة للفضيلة لا تكاد تختلف ، والأخلاق فى محصلتها النهائية تلتقى فى كل دين وملة ، وتأتى على لسان أُمِّى غير مسيحى لا يقرأ ، وعلى لسان وثنى لم يسمع بالأنجيل ، فأسقطنا هذه الإشارات ونحن نفيد من تعاليقه ، لأننا نراها تزيّدا يضلّل القارئ ، ولا يخدم النص ، ولا يقوم عليها دليل .

وعندما بدأت المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، ومقرها باريس ، ترجمة روائع التراث العالمى إلى اللغات المختلفة ، للتقريب بين العالم عن طريق الثقافة ، كان كتاب « الأخلاق والسير » لابن حزم من أوائل الكتب العربية التى ترجمت إلى اللغات الأوربية ، وقد رأيت الترجمة الفرنسية فى الخارج ، منذ سنوات طويلة ، خلال إحدى رحلتى إلى أوربا ، وضاع من الذاكرة اسم مترجمها ، ولكن بقايا انطباع فى نفسى لما تزل باقية ، وهى أن

البون شاسع بين الترجمة وبين الدقة المطلوبة ، لأن المترجم فيما يبدو كان متمكنا تماما من اللغة الفرنسية ، ولكن حظه من اللغة العربية وبلاغتها محدود . وفى عام ١٩٦١ نشرت السيدة ندى طومش نص الكتاب بالعربية مع ترجمته إلى اللغة الفرنسية ، وصدر فى بيروت ، وعبث حاولت أن أجد نسخة منها فى القاهرة ، لأعود إليها ، وأفيد منها ، وأقول رأيى فيها .

● مادة الكتاب :

كثيرون كتبوا فى الأخلاق قبل ابن حزم وبعده ، إغريقاً ومسلمين ومسيحيين ومشارقة ، غير أن هذه المؤلفات ، فى الجانب الأوفر منها ، كانت تستهدف غايات تربوية ، أو تدور حول قضايا تجريدية ، ولكن ابن حزم فى كتابه الذى معنا لا يستهدف غايةً أيًّا من الأمرين ، فهو لا يرتب أفكاره ترتيباً معيناً يعين على استقرارها فى الذاكرة ، ولا يحدّد مفاهيمه تحديداً منطقياً دقيقاً يعدها للمدارسة ، شأن العالم ، أو دارس الأخلاق ، حين يعرض للظواهر فى حياد علمى ، أو يحللها فى جانبها التجريدى ، ولايقف من القضايا التى تناولها موقفا علمياً بارداً ، ولم يأت بها فى شكل حوار كما صنع فى كتابه « الفصل » ، وإنما يُقدّم خلاله كل ملامح الأخلاق العملية التى تعرض لإنسان واسع التجربة ، والتى يرقبها ملاحظ واعٍ دقيق ، يتأمّل الأحداث تتدافع حوله أو فى حياته ، ثم تترسّب فى أعماقه تجارب تتجمع مع الزمن ، وتأخذ مكانها من الذاكرة ، وتمضى مع الزمن متجاورة ، ثم يستردها صاحبها من هناك حين تجئ اللحظة المواتية ، ويكسوها ثوباً من الحكمة ، أو يدفع بها مَثَلاً فى عالم الكلمة .

فالكتاب الذى بين أيدينا صفحات من الحكم تدور حول الأخلاق ، أو ألوان من الخلق إذا شئت ، جاءت فى صورة حكم ، ولكنها لا تشبه ما كتب الآخرون

فى الإسلام أو خارج نطاقه ، ممن يتقلون من هنا وهناك حقائق لا تنتهى عن الأخلاق ، لا صلة لها بواقع اللحظة التى كتبوا فيها ، ولا ترتبط بحالة الجماعة التى يكتبون لها ، وإنما هى قواعد عامة ، أخذت طابعاً تجريدياً ، تتجاوز حدود الزمان والمكان ، وسلكت طريقها إلى كل الحضارات منذ أبعد عصور التاريخ ، وجاء من يجمعها فى مختارات ، على نحو ما نلتقى بها فى كليلة ودمنة ، أو فى الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ، أو فى مجمع الأمثال للميدانى ، أو فى الأبواب الخاصة بالحكمة ، أو المثل ، أو الزهد ، من الموسوعات العربية الشهيرة . أما كتاب ابن حزم فمجموعة من أخلاق ذاتية ، بالغة التميز والأصالة ، وملامح من تأمل الحياة كما رآها المؤلف فى نفسه وفى الآخرين ، وعرفها تجربةً فى أرض الواقع ، ولم تكن وليدة قراءة لكتابات لاحياة فيها من مجموعات الحكم والأمثال .

ويمثل الزهد الإيجابى فكرة جوهرية تلمسها فى كل ما خط ابن حزم فى هذا الكتاب ، صراحة أو وراء الكلمات ، وخصها بحديث مستفيض فى المقدمة والفصلين الأول والثانى ، وتقوم فى جوهرها على غرض واحد اتفق عليه كل الناس ، وهو **طرد الهم** ، ويفصل القول فى هذا ، ويقلب الأمر على وجوهه ، كما لم يصنعه مع أية فكرة أخرى ، ولا يجد وسيلة لبلوغ هذه الغاية « إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة » ، فهو إذا خلا من العيب ، وخلص من الكدر ، كان موصلا إلى طرد الهم . والفضائل هبة من الخالق ، والإنسان صالح أو فاسد بالطبيعة ، طبقاً لمزاجه النفسى الذى خلقه الله على هيئته ، وما يستطيعه التعلم فى هذا قليل ومحدود ، والأبيات التالية من الشعر ، وأوردها تلميذه الحميدى فى كتابه « جذوة المقتبس » توجز لنا هذه الفلسفة :

هل الدهرُ إلاّ ما عرفنا وأدركنا فجائعُه تبقَى ، ولذّاته تفنَى
إذا أمكنتْ فيه مسرّةُ ساعةٍ تولّتْ كمرِّ الطرف واستخلفتْ حزْنا

إلى تبعاتٍ فى المعاد وموقفٍ نودّ لديه أنّنا لم نكن كُنّا
حصلنا على همٍّ وإثمٍ وحسرة وفات الذى كنا نَلَذُّ به عنّا
حنينٌ لِمَا ولىَّ وشغلٌ بما أتىَ وغمٌّ لما يُرجى ، فعيشك لا يَهْنَا
كأن الذى كُنّا نسرُّ بكونه إذا حقّقته النفس لفظٌ بلا معنى

وربما كانت أهمية الرسالة العظمى ، على الرغم من صغر حجمها نسبيا ، أنها تقدّم لنا إطاراً حقيقياً وحيًّا لنفسية الأندلسيين وأخلاقهم فى القرن الحادى عشر الميلادى ، كما يراها ويقيمها مفكر أصيل ومستقل ، وحرص دائما على أن يظل مواطنا حراً فى جمهورية الفكر الإسلامى ، وحافظ على ذلك طوال حياته ، بعيداً عن أية تبعية دينية للمذاهب الفقهية التقليدية .

● منهج ابن حزم فى الكتاب :

يتكون الكتاب من مقدمة موجزة ، يتلوها ثلاثة عشر فصلا ، تختلف طولا وأهمية ، ومحتوى كل فصل منها لا يرتبط ضرورة ، على نحو دقيق ، بالعنوان الذى يجئ على رأسه ، وإنما تلقّى فيه ، بعد قليل من الحكم التى تتسق مع العنوان ، حكماً أخرى ذات معنى مختلف عمّا سبقها وعن العنوان . ومحتوى بعض الفصول لا يتفق تماما مع عنوان الكتاب ذاته ، وإنما يعرض لموضوعات بعيدة عن الأخلاق ، كما نجد فى الفصل السابع ، فهو يتحدث عن الحب ، ويقدم تحديداً دقيقاً ، أو تعريفاً إذا شئت ، لبعض مصطلحات الجمال . وهذا الفصل ، على قصره وإجماله ، إضافة بالغة الأهمية ، عظيمة القيمة ، إلى تاريخ الأفكار الجمالية ، ودون تحيّز يسبق بها ابن حزم كل من جاء قبله من الفلاسفة ، وممن جاء بعده أيضا ، لا فى دقة تعاريفه ووضوحها فحسب ، وإنما فى ثراء الملاحظات وموضوعيتها ، ورقتها ولطفها ، وعن الخصائص الجوهرية للجمال ، والثابت والمتغيّر فيه ، ومواطنه ودرجاته .

ولا يسير ابن حزم فى طريقة العرض على نمط واحد ، وإن كان يغلب عليه طابع الحكمة والمثل ، مما يجعل الكتاب شبيهاً بما نجده عند كبار المفكرين والأدباء الذين عرضوا لمثل هذا اللون من التأليف فى الشرق والغرب .

وقد يترك التأمّل والتقييد والتسجيل ويرتدى ثياب الواعظ الزاهد ، كما فعل فى فصل « أدواء الأخلاق الفاسدة » ، فيحمل على ما فسد منها فى فصاحة ، ويبرز أضرارها فى منطق ، ويبلغ القمة فى إدانة العجب والزهو ، والفخر والخيلاء ، ولايقل فيها روعة عن أروع الصفحات التى سطّرها الزهّاد من الصوفية المسلمين .

وفى الفصل الرابع من الرسالة ارتدّ ابن حزم على نفسه ، وأمسك بالمقرعة يهوى بها على ما عنده من نقائص ، واعترف علنا بأنه شاب حياته شىء من رذائل ، وبما بذل من جهد ليتخلص منها ، ثم حمد الله على أنه برؤ منها أخيرا بالإرادة والعزيمة والمثابرة ، وهى يلتى بذلك فى صدق آسر ، وفى تواضع التائب ، ولو أنه لا يلبث أن يعاود الدفاع عن نفسه فى هذا الفصل . وفى فقرات أخرى من بقية فصول الكتاب ، تعرض لحياته الشخصية ، وتجعل من الكتاب شيئاً شبيهاً بالاعترافات والمذكرات ، أكثر منه دراسة لأخلاق الآخرين .

وثمة فقرات غير قليلة ، وفصول كاملة ، تقدم وصفاً دقيقاً موضوعياً ، ينبض واقعية وحيوية ، للملامح الإنسانية ، تشدنّا إليها بقوة ، وتثير فينا قراءتها إحساساً بالمتعة والاستغراق فيها ، كتلك التى نجد عند قراءة كتاب « الأخلاق » للفيلسوف الإغريقى تيوفراست Teofraste (٣٧٢ — ٢٨٧ ق . م) أو مقالات الفيلسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون (١٥٦١—١٦٢٦) فى السياسة والأخلاق ، ويلتقى مع ابن حزم فى جوانب من حياته ونشاطه العقلى ، ويختلفان فى جوانب أخرى .

وتجئ الأفكار مرسلة ، تفتقد التجانس فيما بينها ، ويعوزها التناسق فى

العرض ، وتنقصها وحدة العمل ، فيبدو الكتاب كما لو كان مسوَّدة كتاب ، أو مجرد كراسة دُوِّنت بها نقاط ، تكمل مع الزمن ، ويعود إليها صاحبها يوما منسقاً ومرتَّباً ، ولكنها تعكس ، فى كل الأحوال ، ملامح مؤلفها ونفسيته فى وضوح وإلحاح . وهى فى هذا الجانب وثيقة عظيمة الأهمية فى تحديد مزاج ابن حزم الأخلاقى بصورة حاسمة ، لامجال للتردد ازاءها ، وتنهض على براهين حاسمة لاسبيل إلى إنكارها ، وتقوم على أعمدة قوية من الشموخ والصلابة والاعتزاز بالنفس ، دون تراخ أو تسامح ، وفى كل الحالات ، وفى مواجهة أعتى الظروف .

● **مصادر الكتاب :**

دراسة المصادر التى يقوم عليها مذهب ابن حزم الأخلاقى فى كتابه محدودةُ الأهمية ، لأن مجموعة الأفكار الأخلاقية والاجتماعية التى لا تعكس تجربته الشخصية قليلة جدًّا ، ويمكن أن نردها إلى الأصول التالية :

● الأخلاق الإسلامية ، ممثلة فيما يدعو إليه القرآن والسنة ، ولو أن استشهاد ابنْ حزم بالقرآن والحديث محدود للغاية فى هذا الكتاب .

● الأفكار التى يمكن أن نجد لها أصلاً فى التوراة والإنجيل ، وهى فى جملتها غير واضحة ، لتلاقى الكتب السماوية فى الجانب الأكبر من الفضائل الإنسانية ، ومن المغالاة فى هذه الحال أن نتجاوز النبع الأقرب والمباشر فى ثقافة ابن حزم وهو القرآن ، لنفتش عن أصولها فى الثقافات الأخرى .

● التأثيرات الفلسفية الإغريقية ، ويشير إليها ابن حزم قليلاً جدًّا ، ويردِّد بكثرة تعريفات الفضائل والرذائل التى يسلم بها الناس دون حاجة إلى برهان ، وتومئ إلى تأثره بالمدرسة العربية الأرسطية فى جدلها ، وكان ابن حزم يعرفها جيداً ، وهو يأخذ بتعريف أرسطو للفضيلة ، ويرجع الفضائل إلى أصول أربعة كما صنع

أفلاطون ، وإن اختلف عنه فى بعضها .

● التأثيرات الهندية والفارسية ، وهى قليلة أيضا ، وعلمانية الطابع ، شأنها كذلك شأن المصدر السابق ، وأخذت طريقها إلى الفكر الإسلامى من خلال كتب الأدب أمثال كليلة ودمنة ، والأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع .

● المصدرُ الأخير ، والأهم ، التجاربُ الشخصية لابن حزم ، وكانت واسعة بلا حدود ، وشملت كل جوانب الحياة ، الفكرية والعملية ، وأوجز هذا المصدر فى مقدمة الرسالة : « إنى جمعتُ فى كتابى هذا معانى كثيرة ، أفادنيها واهب التمييز تعالى ، بمرور الأيام ، وتعاقب الأحوال ، بما منحنى عزَّ وجل من العلم بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله ، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الازدياد من فضول المال » . والجانب الأكبر من الأفكار يعود إلى هذا المصدر ، وفيه تكمن أهمية الكتاب .

ومن اللافت للنظر أن ابن حزم ، دافع عن الإسلام بقوة ، وشجب كل العقائد المخالفة له فى حدة ، وواجه كل الذين حاولوا أن ينالوا منه فى الشرق والغرب ، ولم تهبط حماسته الدينية أبداً ، كان فى حياته الاجتماعية على جانب كبير من التسامح ، واحترام الإنسان كإنسان ، فكان محله المختار وهو لاجئ فى المرية دكان اسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلى ، على ما رواه هو نفسه فى كتابه « طوق الحمامة » ، على عنف ما واجه به اليهودية ديناً فى كتابه « الفصل » وهو يتناول عقائدها ، وعلى شدة ما وصم به يوسف بن إسماعيل بن النغرلّة وزير باديس بن حبوس الشهير حين اجترأ هذا على الإسلام والقرآن . وهو يرى فى رسالته هذه أن من يمارس دينه بإخلاص ، أى دين كان ، خيرٌ من رجل لا دين له على الإطلاق .

وابن حزم يرفض التقليد فى التشريع وفى الحياة ، ولا يصدر فى حكمه على الأشياء إلاّ عن معرفة ، « وإنما يحكم فى الشيئين من عرفها لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر » ، وإذا ظن شيئاً وجاءت التجربة ، أو المعرفة ، أو الاستقراء بغيره عدل عنه : « كنّا (الضمير يعود على ابن حزم) نظن أن العشق فى ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر ، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك ، وهو فى الساكنة الحركات أكثر ، ما لم يكن ذلك السكون بَلَهاً » . ويسبق حكمَهُ فى كثير من المواطن قَوْلُهُ : « وقد وقفت » ، أو « رأيت » ، أو « أخبرنى » ، أو « تأمّلت » ، أو يأخذ له المثل من حياته نفسها ، أويستشهد عليه بقوْل العامة ، لأنه لايقف بتأمله عند طبقة بعينها ، وإنما يلتقط حكمته ودليله أنى وجدهما ، عند عِلْية القوم أو بين غمار الناس ، وإذا لم يقع للظاهرة على سبب سأل عنه من يعرف ، وقد يتلقى الحكم فى الأمر مجملا ، يقع عليه فى التراث الإنسانى بعامة ، فإذا ارتضاه فكرة له برهن عليه .

● من « طوق الحمامة » إلى الأخلاق والسِّيَر :

ألّف ابن حزم طوق الحمامة وهو فى غضارة الشباب ، لمّا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، وفيه عالج أمر الحب من كل جوانبه ، فلسفة يبحث له عن سبب ، وظاهرة تحدث فى الحياة كل يوم ، وأوجز القول فى الفلسفة ، وأفاض فى الظاهرة ، وعرض لوسائله ، وطرقه ، وألوانه ، « وفيض من ذكرياته عن نفسه ، وعن أصدقائه ، وآخرين مجهولين ، وكلهم من العشّاق ، زفراتهم حارة ، وأحاسيسهم صادقة ، يخلطون المداد بالدمع أو الريق ، ويستخدمون فى التراسل الحمام والعيون والرسل ، ويعانون من الوشاة ، ويموتون من الحب ، وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم ، والشخصيات العامة فى

قرطبة ، وبالإشارات التاريخية ، والأحداث الهامة ، والحفلات الخاصة ، وتخطيط العاصمة ومعمارها ، ومساكن آل حزم ومستواها ، وكلها تتحرك نابضة بالحياة ، وتمضى متماسكة مثل عناقيد العنب ، وهو قبل ذلك كله سيرة ذاتية للمؤلف ، خطها بقلمه ، واعترافات مخلصة ألقى بها فى جرأة وصدق غير معهودين فى الفكر الإسلامى على أيامه ، وما بعدها ، وحتى يومنا هذا »[1] .

وكان ابن حزم فيه كعادته ، صريحاً جريئاً ، لا يكنى ولا يلمح ولايشير ، ولا يتأثم ولا يتردد ، فألقى ببعض القضايا واضحة ، وواجهها بلالف ولا دوران ، فأثار ذلك بعض الذين يتظاهرون بالمحافظة ، ويصطنعون الوقار ، حتى أن جماعة من الشيوخ ثارت عندما طبع الكتاب للمرة الأولى ، ولازالت منهم بقية إلى يومنا يتوارثون موقفهم ، وزعموا أن الكتاب مدسوس على ابن حزم ، رغم أن ذلك ثابت تاريخياً ، ويدعمه النقد الداخلى للنص نفسه ، تريد أن تحرم هذا العالم العظيم من أروع ما خطته يمينه ، ومن أجمل صفحات يزهو بها الأدب العربى والفكر الإسلامى .

قَصَدَ ابنُ حزم من كتاب الطوق أن يدرس ظاهرة الحب فى مجتمعه ، لا دراسة نظرية تجريدية ، وأن يضرب المثل والشاهد على كل ما يقول ، وفى أحايين قليلة كان يستطرد إلى قضايا جانبية ، ليست ذات صلة مباشرة بالموضوع .

أمّا كتاب « الأخلاق والسير » ، فجاء بين آخر ما خط ابن حزم فى حياته ، إن لم يكن آخر ما كتب على الإطلاق ، وهو على نحو ما ألمحنا خليط من التجارب والذكريات اتسعت وعمقت ، وكانت صدى صادقا وأمينا لحياة ابن حزم

---

(١) د . الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ . والطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٨١ .

نفسها ، وتعددت موضوعاته وقضاياه بالقدر الذى كانت عليه حياة مؤلفه ، وهو يحمل ، بداهة ، كلمة ابن حزم الأخيرة فيما آمن به وارتآه ، واختلف أسلوبه فى الكتابين تبعاً لاختلاف موضوعهما ، وزمن تحريرهما .

فهو فى «الطوق» يستطرد ، ويستشهد بالكثير من أشعاره ، ويمايز بين النص يعرض لحادثة تاريخية فيجئ كلامه مرسلاً ، وبينه يعكس أحاسيسه الداخلية فيجئ نثراً فنياً راقياً ، موشّى بالصور ، من تشبيه واستعارة ومجاز ، ويحرص فيه على الإيقاع الموسيقىّ ، من تناغم العبارة ، وازدواج الجملة ، وقد تقع جمله سجعاً فى جانب منها ، فتجئ عفواً غير متكلّفة . أما أسلوبه فى « الأخلاق » فيعتمد على التركيز والتكثيف ، والاختصار الذى تصبح معه الجملة حكمة يسهل أن تعلق بالذاكرة ، وتتجاوز التفاصيل لتنصرف إلى الجوهر ، وتصدق على أكثر من حالة ، وإن اختلفت بينها العوارض ، أو تجرى مثلا على الألسنة ، نستعيره من ابن حزم ، ليعبّر عن حالات مشابهة ، لا قدرة لنا على التعبير عنها . ونادراً ما يذكر فيه أسماء غيره ، أو يعنى بالتأريخ لما يقول ، وأحكامه تنضح خبرة وتجربة وصقلاً ، وأشد رزانة ومسئولية ووعياً ، وتعكس قوة وإصراراً واقتناعا .

ومن هنا ، فإن القضايا التى تجئ فى الكتابين معاً قليلة جداً ، ولفت نظرى منها أمران : أولهما الكذب . وعرض له ابن حزم تفصيلا فى الطوق ، وطوّق المعنى هناك واستوفى جوانبه ، وجاء الحديث عنه فى « الأخلاق » موجزاً ، ولكن فكرته الرئيسية لم تتغير فى الكتابين : الكذب أشد من الكفر ، والكفر ليس إلاّ لوناً من الكذب . والثانى حديثه عن الحب ، وما أعظم ابن حزم حين يعرض للحب للمرة الثانية ، وهو شيخ على أبواب السبعين من حياته العاصفة ، لا يتّهم فيما يقول بأن احتدام العاطفة ، وفوران الجسد ، دفع به إلى ما يجب أن يصمت عنه . وفى حديثه عنه ، وهو على وشك الرحيل عن الدنيا ، يذكرنا بدور الحب فى الحياة ،

وأهميته فى تكييف سلوك الناس ، ولا يجئ به فى كتاب « الأخلاق » ضائعاً بين غمار القضايا الأخرى التى عرض لها ، أو فيض التجارب الذى ساقه بين أيدينا ، وإنما خصه بفصول ثلاثة مستقلة : الأول « فى أنواع المحبة » ، والثانى وكان فيما يبدو مسوّدة لم يُقدّر لها أن تكمل أعطاه عنوان : « فصول من هذا الباب » ، والثالث « فى أنواع صباحة الصور » ، تحدّث فيه عن مقاييس الجمال الحسى ، والفصول الثلاثة تختلف فيما بينها طولاً وقصرا ، ولكن حتى أقصرها ليس أقصر فصول الكتاب ، وفى غيرها قد يعرض لشىء يتصل بالحب عجلاً ، يجئ فى حكمة أو مثل شأن بقية الموضوعات .

ليس من غايتى هنا أن أتناول الأمر كله درْسا وتحليلاً ، فذلك حديث يطول ، وليس هنا مجاله ، وقد أعود إليه فى مناسبة أخرى ، وبحسبى أن أشير هنا إلى أن موقف ابن حزم من الحب ، ونظرته إلى جوهره ، لم تتغير رغم الزمن ، وأول مانلحظه فى كتابه « الأخلاق » ، كما فى كتابه « الطوق » من قبل ، أنه صدّر دراسته له بقوله : « فصل فى أنواع المحبة ، وقد سئلت فى تحقيق القول فيها ، وفى أنواعها » . والفارق بينهما أن الفعل جاء مبيناً للمجهول ، فلا نعرف من الذى سأله ، وأنه كتب « الطوق » استجابة لرغبة صديق كتب إليه ، ذكر ذلك ولم يفصح عن اسمه .

تُرى كان الناس يقصدون ابن حزم فعلا يسألونه الفتوى فى قضايا الحب ، فتى ينصح شباباً ، وشيخاً يفيض حكمة ، أما أنه أسلوب من الكتابة ، ولون من مواجهة المواضيع ؟ .

فى « الطوق » أفاض ابن حزم فى قضايا خارجية كثيرة ، تتصل بالحب ولكنها خارجة عن ماهيته ، كالرقيب ، والواشى ، والعاذل ، والمساعد من الأخوان ، وفضل التعفف ، وقبح المعصية ، ولم يعرض لشىء من هذا فى كتابه

« الأخلاق » ، وانتحى فى هذا سبيلاً مغايرة فى تناول قضية الحب ، يغلب عليها منطقية التقسيم ، ومنهجية التعليل ، والإيجاز فى القول . وفيهما معا ، فى الكتاب الأول وفى الثانى ، يجعل العلاقة الجنسية ذات خطر فعّال فى تعميق الحب وتوكيده ، ولو أن عبارته عنها فى « الأخلاق » أوجز قولاً ، وأكثر رصانة ، وأشد ايضاحاً : « وأقصى أطماع المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء ، إذا رجا ذلك . ولذلك تجد المحبّ المفرط المحبة فى ذات فراشه يرغب فى جماعها على هيآت شتّى ، وفى أماكن مختلفة ، ليستكثر من الاتصال بها » .

وفى « الأخلاق » فصّل القول فى ألوان حب « المحرمات » من النساء ، تقع بين الأقارب الذين لا يحل بينهم التزاوج شرعاً ، واختلاف موقف الشرائع منه ، ونفهم من عبارته ، وإن لم يقع على التعبير العلمى فى صيغته المعاصرة ، أن تحديد طبقات من يصح للمرء أن يتزوج منهن ومن لا يصح مرجعه الدين والعادة ، وليست الغريزة نفسها ، فهى لا تفرق حين ترغب بين قريب أو بعيد ، إذا تجرّد المرء من وازع الدين ، وحائل التقاليد ، وهى قضية لم يعرض لها فى « الطوق » أصلا ، وأن أشار عرضاً ، وفى عجالة ، لجانب منها وقع فعلاً ، دون أن يتوقف عنده أو يعقب عليه .

وأوجز فى « الأخلاق » أيضا ، ولم يصنعه فى « الطوق » ، أطوار الحب ، وكيف يبدأ : استحساناً ، فإعجاباً ، فقربى ، فإلفة ، فكلفاً ، وهذا الأخير يسمى فى باب الغزل بالعشق ، « وهو امتناع النوم والأكل والشرب ، إلا اليسير من ذلك ، وربما أدّى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس ، أو إلى الموت ، وليس وراء هذا منزلة فى تناهى المحبة أصلا » .

أما حديثه عن الجمال وماهيته وأشكاله فلم يعرض له فى « الطوق » أصلا ، إلا ما جاء من حديثه عرضا عبر صفحات الكتاب ، من أنه أحب فى صباه جارية

شقراء الشعر ، فلم يستحسن بعد ذلك سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، وأن أباه كان مثله فى هذا ، وأن خلفاء بنى أمية فى الأندلس كلهم « مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف » .

وباختصار جاء « الطوق » صورة دقيقة لحدة الشباب واندفاعه ، وتوهجه وعفويته ، وكان كتاب « الأخلاق » انعكاساً صادقاً لحكمة الشيوخ ، ورزانة العقل ، وما أفاد صاحبه فى معترك الحياة .

كتاب الأخلاق والسِّيَر
فى مداواة النفوس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال أبو محمد ، علىُّ بن أحمد بن حزم ، رضى الله عنه :

الحمد لله على عظيم مننه ، وصلى الله على محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله ، وسلم تسليما .

وأبرأ إليه تعالى من الحوْل[1] والقوة ، وأستعينه على كل ما يعصم فى الدنيا من جميع المخاوف والمكاره ، ويخلِّص فى الأخرى من كل هول وضيق .

أمَّا بعد ؛

فإنى جمعت فى كتابى هذا معانى كثيرة ، أفادنيها

---

(١) الحول : الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور .

واهبُ التمييز تعالى ، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال ، بما منحنى – عزَّ وجلّ – من التهمُّمِ (٢) بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله ، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمري ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الازدياد من فضول المال ، وزممت (٣) كل ما سبرت (٤) من ذلك بهذا الكتاب ، لينفع الله تعالى به مَن يشاء مِن عباده ، ممن يصل إليه ، بما أتعبت فيه نفسى ، وأجهدتها فيه ، وأطلت فيه فكرى ، فيأخذه عفوا ، وأهديته إليه هنيئا ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال ، وعقد (٥) الأملاك ، إذا تدبَّره ، ويسّره

---

(٢) تهمم الشيء : تحسسه ، والتهمم المصدر منها .

(٣) زممت : زم فلان كلمته جعل لها من الصواب غرضا يرمى إليه .

(٤) سبر : خبر .

(٥) عقد : تأكيد .

الله تعالى لاستعماله ، وأنا راج فى ذلك من الله تعالى أعظم الأجر ، لنيّتى فى نفع عباده ، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة علل نفوسهم . وبالله أستعين .

١

فصل فى مداواة النفوس
وإصلاح الأخلاق

لذَّةُ العاقلِ بتمييزه ، ولذّةُ العالمِ بعلمه ، ولذّة الحكيمِ بحكمته ، ولذّةُ المجتهدِ لله عز وجل باجتهاده أعظم مِن لذّةِ الآكِلِ بأكله ، والشاربِ بشربه ، والواطىء بوطئه ، والكاسب بكسبه ، واللاعب بلعبه ، والآمر بأمره . وبرهان ذلك أن الحكيمَ ، والعاقل ، والعالم ، والعامل ، واجدون لسائر اللذات التى سمّيْنَاها كما يجدها المنهمكُ فيها ، ويحسّونها كما يحسّها المقبلُ عليها ، وقد تركوها ، وأعرضوا عنها ،

وآثروا طلبَ الفضائلِ عليها ، وإنما يحكم فى الشيئين مَن عرفَهما ، لا مَن عرف أحدَهما ولم يعرف الآخر .

إذا تعقَّبتَ الأمورَ كلَّها فسدتْ عليك ، وانتهيتَ فى آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أنَّ الحقيقة إنّما هى العملُ للآخرة فقط ، لأنَّ كلَّ أملٍ ظَفِرْتَ به فعقباه حزنٌ ؛ إمَّا بذهابه عنك ، وإمَّا بذهابك عنه ، ولابدّ مِن أحد هذين الشيئين ، إلاّ العملُ لله عزّ وجلّ ، فعقباه على كلِّ حالٍ سرورٌ فى عاجل وآجل . أمّا العاجلُ فقلَّةُ الهمِّ بما يهتمُّ به الناسُ ، وأنَّك به معظَّمٌ مِن الصديق والعدوّ ، وأمّا فى الآجل فالجنَّةُ .

تَطَلَّبتُ غرضاً يستوى الناسُ كلُّهم فى استحسانه ، وفى طلبه ، فلم أجده إلاّ واحدا ، وهو طَرْدُ الهمِّ . فلمّا تدبّرته علمتُ أنّ الناس كلّهم لم يستووا فى إحسانه

فقط ، ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيتُهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ، وتباين هِمَمِهِم وإراداتهم ، لا يتحرّكون حركةً أصلاً إلاّ فيما يرجون به طَرْدَ الهمّ ، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلاّ فيما يعانون به إزاحتَهُ عن أنفسهم ، فمِن مخطئٍ وَجْهَ سبيلهِ ، ومِن مقاربٍ للخطأ ، ومِن مُصيبٍ وهو الأقلُّ من الناس ، فى الأقلِّ من أموره ، فطرْدُ الهمِّ مذهبٌ قد اتفقت الأمم كلّها ، مُذْ خلق الله تعالى العالمَ إلى أن يتناهى عالم الابتداء ويعاقبه[1] عالم الحساب ، على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه ، وكلُّ غرض غيره ففى الناس من لا يستحسنه ، إذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة ، وفى الناس مِن أهل الشرّ مَن لا يريد الخير ، ولا الأمن ، ولا الحقّ .

---

(١) يعاقبه : يأتى بعده .

وفى الناس مَن يؤثر[٢] الخمول بهواه وإرادته على بُعْدِ الصيت .

وفى الناس مَن لا يريد المالَ ، ويؤثر عدمَه على وجوده ، ككثيرٍ مِن الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم مِن الزهّاد والفلاسفة .

وفى الناس مَن يبغض اللذاتَ بطبعه ، ويستنقص طالبَها ، كمن ذكرنا من المؤثرين فَقْدَ المالِ على اقتنائه .

وفى الناس مَن يؤثر الجهلَ على العلم ، كأكثر مَن ترى مِن العامَّة .

وهذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواها .

وليس فى العالم مُذْ كان إلى أن يتناهى أحدٌ يستحسن الهمَّ ، ولا يريد طَرْدَه عن نفسه ، فلما استقرّ

---

(٢) فى المخطوطة : يريد .

فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى هذا السرّ العجيب ، وأنار الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم ، **بحثت عن سبيلٍ موصِّلةٍ على الحقيقة إلى طرْد الهمّ** ، الذى هو المطلوب للنفس ، الذى اتفق جميع أنواع الإنسان ، الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح ، على السعى له ، **فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة** .

وإلاَّ ، فإنّما طَلَبَ **المالَ** طلّابُهُ ليطردوا به هَمَّ **الفقر** عن أنفسهم .

وإنّما طلب الصوت (٣) من طلبه ليطرد به عن نفسه هَمَّ الاستعلاء عليها .

وإنما طَلَبَ **اللذاتَ** مَن طَلَبَها ليطرد بها عن نفسه هَمَّ فَوْتِها .

---

(٣) الصوت : الصيت .

وإنّما طَلَبَ العلمَ مَن طلبه ليطرد به عن نفسه هَمَّ الجهل .

وإنّما هشّ إلى سماع الأخبار ، ومحادثة الناس ، مَن يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هَمَّ التوحُّدِ ، ومغيب أحوال العالم عنه .

وإنّما أَكَلَ مَن أكل ، وشَربَ مَن شرب ونَكَحَ مَن نكح ، ولَبِسَ مَن لبس ، [ولعب مَن لعب ، واكتنّ من اكتنّ(٤) ، وركب من ركب] ومَشَى مَن مشى ، وتودَّعَ مَن تَودَّع ، ليطردوا عن أنفسهم أضدادَ هذه الأفعال وسائر الهموم

وفى كلِّ ما ذكرنا ، لمن تدبّر ، هُمومٌ حادثةٌ لا بدّ لها من عوارض تَعْرِضُ فى خلالها ، وتعذُّر ما يتعذّر منها ، وذهاب ما يوجد منها ، والعجز عنه لبعض الآفات

---

(٤) اكتن : استتر.

الكائنة ، وأيضا نتائجُ سوءٍ تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك ، مِن خوْفِ مُنافسٍ ، أو طَعْنِ حاسدٍ ، أو اختلاسِ راغبٍ ، أو اقتناءِ عدوٍ ، مع الذمّ والاثم ، وغير ذلك .

ووجدتُ العملَ للآخرة سالماً من كلّ عَيْب ، خالصاً من كلِّ كَدَر ، موصِّلاً إلى طرْد الهمِّ على الحقيقة . ووجدتُ العاملَ للآخرة إن امْتُحِنَ بمكروه فى تلك السبيلِ لم يهتمّ ، بل يُسرّ ، إذ رجاؤه فى عاقبة ما ينَالُ به عونٌ له على ما يطلب ، وزائدٌ فى الغرض الذى إيّاه يقصد .

ووجدتُه إنْ عاقه عمّا هو بسبيله عائقٌ لم يهتمّ ، إذ ليس مؤاخذًا بذلك ، فهو غيرُ مؤثرٍ فى ما يطلب .

ورأيتُه إنْ قُصِدَ بالأذى سرَّ ، وإنْ نكبته نكبةٌ سرَّ ، وإنْ تعب فيما سلك فيه سرَّ ، فهو فى سرور متّصلٍ

أبدًا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا .

فاعلم أنّه مطلوبٌ واحد ، وهو طَرْدُ الهم ، وليس له إلاّ طريقٌ واحد ، وهو العمل لله تعالى ، فما عدا هذا فضلالٌ وسُخْف .

لا تبذلْ نفسَك إلاّ فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلاّ فى ذات الله عزَّ وجلَّ ، وفى دعاءٍ إلى حقّ ، وفى حماية الحريم ، وفى دَفْعِ هوانٍ لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفى نَصْرِ مظلومٍ ، وباذل نفسه فى عَرَض دنيا كبائع الياقوت بالحصى .

لا مروءةَ لمن لا دين له .

العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلاّ الجنة .

لإبليسَ فى ذمِّ الرياء حِبالة (٥) ، وذلك أنّه رُبَّ ممتنعٍ من فِعْلِ خيرٍ خوفَ أَنْ يُظَنَّ به الرياء .

---

(٥) حبالة : مصيدة .

٢

باب عظيم من أبواب العقل والراحة

وهو اطّراح المبالاة بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عزّ وجلّ ، بل هذا باب العقل كلّه ، والراحة كلّها .

مَن قَدَّرَ أنْ يسلم مِن طَعْنِ الناسِ وعيبهم فهو مجنون .

مَن حَقَّقَ النظرَ ، وراضَ نفسَه على السكون إلى الحقائق ، وإنْ آلمتها فى أوّل صدمة ، كان اغتباطُهُ بذمّ الناسِ إيّاه أشدّ وأكثر مِن اغتباطه بمدحهم إيَّاه ، لأنَّ مدحهم إيَّاه إنْ كان بحق ، وبَلَغَهُ مَدْحُهم له ، أَسرى

ذلك فيه العُجْبَ ، فأفسد بذلك فضائله ، وإنْ كان بباطل فبلغه ، فسرّه ، فقد صار مسروراً بالكذب ، وهذا نقص شديد .

وأمَّا ذمُّ الناسِ إيّاه ، فإن كان بحقٍّ فبلغه ، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظٌّ عظيم لا يزهد فيه إلاّ ناقص ، وإنْ كان بباطل وبلغه فَصَبَرَ اكْتَسَبَ فضلا زائداً بالحلم والصبر ، وكان مع ذلك غانماً ، لأنه يأخذ حسنات مَن ذمَّه بالباطل ، فيحظى بها فى دار الجزاء ، أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمالٍ لم يتعب فيها ، ولا تكَلَّفَها ، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلاَّ مجنون .

وأَمَّا إنْ لم يبلغه مَدْحُ الناس إيَّاه ، فكلامهم وسكوتهم سواء ، وليس كذلك ذمّهم إياه ، لأنه غانمٌ للأجر على كل حال ، بلغه ذمُّهم أو لم يبلغه . ولولا

قول رسول الله ﷺ فى الثناء الحسن : « ذلك عاجلُ بُشْرى المؤمن » لوجب أن يرغب العاقلُ فى الذمّ بالباطل أكثر من رغبته فى المدح بالحق ، ولكن إذْ جاء هذا القول فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل ، فإنما تجب البشرى بما فى الممدوح لا بنفس المدح .

ليس بين الفضائل والرذائل ، ولا بين الطاعات والمعاصى ، إلاّ نِفارُ النفس وأُنسها فقط . فالسعيد من أنستْ نفسُه بالفضائل والطاعات ، ونفرتْ من الرذائل والمعاصى ، والشقىُّ من أنست نفسه بالرذائل والمعاصى ، ونفرت من الفضائل والطاعات ، وليس ها هنا إلاّ صنع الله تعالى وحفظه .

طالبُ الآخرة ليفوز فى الآخرة متَشَبِّهٌ بالملائكة ، وطالبُ الشرِّ متشبهٌ بالشياطين ، وطالبُ الصوْتِ والغلبة متشبِّهٌ بالسباع ، وطالبُ اللذّاتِ متشبِّهٌ بالبهائم ،

وطالبُ المالِ لعيْنِ المال ، لا لينفقه فى الواجبات والنوافل المحمودة ، أَسْقَطُ وأرْذَلُ من أن يكون له فى شىء من الحيوان شَبَهٌ ، ولكنّه يُشبه الغدران التى فى الكهوف ، فى المواضع الوعرة ، لا ينتفع بها شىءٌ مِن الحيوان .

فالعاقلُ لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبعٌ أو بهيمة ، أو جماد ، وإنَّما يغتبط بتقدُّمه فى الفضيلة التى أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات ، وهى **التمييز** الذى يشارك فيه الملائكة .

فمن سرَّ بشجاعته التى يضعها فى غير موضعها لله – عزّ وجلّ – فليعلمْ أنَّ النمر أجرأ منه ، وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه ، ومَن سرَّ بقوّة جسمه فليعلمْ أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسما ، ومَن سرَّ بحمله الأثقال فليعلمْ أنَّ الحمار أحمل منه ، ومَن سر

بسرعة عَدْوِهِ فليعلمْ أنَّ الكلب والأرنب أسرع عَدْوًا منه ، ومَن سرَّ بحسن صوته فليعلمْ أنّ كثيراً مِن الطير أحسن صوتاً منه ، وأنَّ أصواتَ المزاميرِ ألذُّ وأطرب مِن صوته . فأىُّ فخر ، وأىُّ سرور ، فى ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه ؟ .

لكن مَن قَوِىَ تمييزه ، واتسع علمُه ، وَحَسُنَ عملهُ ، فليغتبط بذلك ، فإنّه لا يتقدمه فى هذه الوجوه إلاَّ الملائكةُ وخيار الناس .

قَوْلُ الله تعالى : (وأمّا مَنْ خاف مقام ربِّه ونَهى النفسَ عن الهوى فإن الجنَّةَ هى المأوى) [١] جامعٌ لكلِّ فضيلة ، لأنَّ نَهْىَ النفس عن الهوى هو رَدْعُها عن الطبعِ الغضبىِّ ، وعن الطبع الشهوانىّ ، لأنّ كليهما واقعٌ تحت موجب الهوى ، فلم يبق إلاّ استعمال النفس

---

(١) سورة النازعات ، الآيتان : ٤٠ و ٤١ .

للنطق الموضوع فيها ، الذى به بانت عن البهائم والحشرات والسباع .

قَوْلُ رسولِ الله ، ﷺ ، للذى استوصاه : « لا تغضبْ » ، وأمره – عليه السلام – أنْ يُحِبَّ المرءُ لغيره ما يحب لنفسه ، جامعان لكل فضيلة ، لأنَّ فى نَهْيِهِ عن الغضب رَدْعَ النفس ذات القوّةِ الغضبيَّةِ عن هواها ، وفى أَمْرِهِ عليه السلام أَنْ يحب المرءُ لغيره ما يحب لنفسه رَدْعُ النفسِ عن القوَّة الشهوانية ، وجَمْعٌ لأزمَّة(٢) العدل الذى هو فائدة النطق الموضوع فى النفس الناطقة .

رأيتُ أكثرَ الناس ، إلاّ من عصم الله تعالى وقليلٌ ما هم ، يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم فى الدنيا ، ويحتقبون(٣) عظيم الاثم الموجب للنار فى

(٢) أزمة : جمع زمام ، وزمام الأمر ملاكه .

(٣) يحتقبون الإثم : يجمعونه ، كأنه يحتملونه من خلفهم .

الآخرة ، بما لا يحظون معه بنفع أصلا ، مِن نيَّاتٍ خبيثة يَضِبُّونَ(٤) عليها ، مِن تَمَنِّى الغلاءَ المهلكَ للناس وللصغار ، ومَن لا ذنب له ، وتمنِّى أشدَّ البلاءِ لمن يكرهونه ، وقد علموا يقينا أن تلك النيات الفاسدة لا تعجِّلُ لهم شيئا مما يتمنَّوْنه ، أو يوجب كونه ، وأنَّهم لو صَفَّوْا نياتِهم وحسَّنوها ، لتعجَّلوا الراحة لأنفسهم ، وتفرَّغوا بذلك لمصالح أمورهم ، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر فى المعاد(٥) ، مِن غير أنْ يؤخِّر ذلك شيئا مما يريدونه ، أو يمنع كونه ، فأىُّ غبنٍ أعظمُ مِن هذه الحال التى نبَّهنا عليها ، وأىُّ سَعْدٍ أعظمُ من التى دعونا إليها ؟

إذا حقّقتَ مدة الدنيا لم تجدها إلاّ الآن ، الذى هو فصل الزمانين فقط ، وأمّا ما مضى وما لم يأت

(٤) ضب على الشىء ، وأضب : احتواه ولزمه فلم يفارقه .

(٥) المعاد : الحياة الآخرة .

فمعدومان ، كما لم يكن ، فمن أضل ممن يبيع باقياً خالداً بمدة هى أقل من كرّ الطرف .

إذا نام المرءُ خرج عن الدنيا ، ونسى كلَّ سرور ، وكلَّ حزْنٍ ، فلو رتَّبَ نفسه فى يقظته على ذلك أيضا لسعد السعادة التامة .

من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم ، ومن كافأ مَن أساء إليه منهم فهو مثلهم ، ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم ، وخيرهم ، وأفضلهم .

٣

فصل فى العلم

لو لم يكن مِن فضلِ العلم إلاّ أنّ الجهّال يهابونك ويجلّونك ، وأنّ العلماء يُحبُّونك ويُكرمونك ، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه ، فكيف بسائر فضائله فى الدنيا والآخرة . ولو لم يكن مِن نقص الجهل إلاّ أنّ صاحبه يحسدُ العلماءَ ، ويغبط نظراءه من الجهّال ، لكان ذلك سبباً إلى وجوب االفرار عنه ، فكيف بسائر رذائله فى الدنيا والآخرة .

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به ، إلاّ أنّه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ، ومطارح

الآمال التى لا تفيد غير الهمِّ ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس ، لكان ذلك أعظم داعٍ إليه ، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ، ومن أقلِّها ما ذكرنا ، مما يحصل عليه طالب العلم ، وفى مثله أتعبَ ضعفاءُ الملوك أنفسَهم ، فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنّرْد(١) ، والخمر والأغانى ، ورَكْضِ الدوابِّ فى طلبِ الصيد ، وسائر الفضول التى تعود بالمضرَّة فى الدنيا والآخرة ، وأمّا فائدة فلا فائدة .

لو تدبّر العالم فى مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذلِّ بتسلُّط الجهّال ، ومن الهمِّ بمغيب الحقائق عنه ، ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفيَّة عن غيره ، لزادَ حمداً لله عزّ وجلّ ، وغِبطةً بما لديه من العلم ، ورغبةً فى المزيد منه .

---

(١) النرد : لعبة ذات صندوق وحجارة وفصين ، تعتمد على الحظ ، وتنقل فيها الحجارة على حسب مايأتى به الفص (أو الزهر) ، وتعرف عند العامة فى مصر بالطاولة .

مَن شغل نفسه بأدنى العلوم ، وترك أعلاها وهو قادر عليه ، كان كزارع الذرة فى الأرض التى يجود فيها البُرُّ[٢] ، وكغارس الشَّعْراء[٣] حيث يزكو النخل والزيتون .

نَشْرُ العلمِ عند مَن ليس مِن أهله مُفْسِدٌ لهم ، كإطعامِكَ العسلَ والحلواءَ مَن به احترَاقٌ وحُمَّى ، أو كتشميمِكَ المسكَ والعنبرَ لمن به صداع من احتدام الصفراء[٤] .

الباخلُ بالعلم ألأمُ من الباخل بالمال ، لأنّ الباخل بالمال أَشْفَقَ مِن فناء ما بيده ، والباخل بالعلم بَخِلَ بما لا يفنى على النفقة ، ولا يفارقه مع البذل .

---

(٢) البر : القمح .

(٣) الشعراء : ضرب من الخوخ ، وشجرة من الحمض ليس لها ورق ، ولها هدب ، تحرص عليها الإبل حرصاً شديدا ، وتخرج عيداناً شدادا .

(٤) يلتقى ابن حزم فى هذا الاتجاه مع المذهب الارستقراطى عند فلاسفة اليونان ، الذين يجعلون العلم وقفا على طبقة مختارة متميزة .

مَن مَالَ بطبعه إلى عِلْمٍ ما ، وإنْ كان أدنى من غيره ، فلا يشغلها بسواه فيكون كغارس النارجيل (٥) بالأندلس ، وكغارس الزيتون بالهند ، وكل ذلك لا ينجب .

أَجَلُّ العلومِ ما قرّبك من خالقك تعالى ، وما أعانك على الوصول إلى رضاه .

انظر فى المال والحال والصحة إلى مَن دونك ، وانظر فى الدين والعلم والفضائل إلى مَن فوقك .

العلومُ الغامضة كالدواء القوىِّ يصلح الأجسادَ القوية ، ويهلك الأجساد الضعيفة ، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقلَ القوىَّ جودةً وتصفيةً من كل آفةٍ ، وتَهْلِكُ ذا العقل الضعيف .

مِن الغوْصِ على الجنون مالو غاصه صاحبه على

---

(٥) النارجيل : واحدته نارجيلة ، شجر من فصيلة النخل ، فيه أنواع للتزيين ، وأخرى مثمرة ، وثمرها يسمى : جوز الهند .

العقل لكان أحكم من **الحسن البصرى** ، **وأفلاطون الأثينى** ، **وبزرجمهر الفارسى**(٦) .

وقفَ العقلُ عند أنه لا ينفع إن لم يؤيَّد بتوفيقٍ فى الدين ، أو بسَعْدٍ فى الدنيا .

لا تضرَّ نفسكَ فى أنْ تجرِّبَ بها الآراءَ الفاسدة ، لتُرِى المشير بها فسادها فتهلك ، فإنّ مَلامة ذا الرأىِ

---

(٦) **الحسن البصرى** : من كبار المحدثين فى القرن الأول الهجرى ، ويقولون إنه كان يعرف سبعين صحابيا ممن اشتركوا فى معركة بدر ، والجانب الأكبر من الحركات الدينية التى ظهرت فى الإسلام يعود إليه ، فقد اتخذ الصوفية من زهده وتقواه مثلا يحتذى ، ولا يمل أهل السنة من ترديد أقواله وأحاديثه ، ويعتبره المعتزلة واحدا منهم ، وتوفى يوم الجمعة ١٠ من أكتوبر عام ٧١٨م .

انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٢٢٧ ، طبعة بولاق .

● **أفلاطون** : فيلسوف يونانى ، ولد فى أثينا عام ٤٢٧ ق . م . فى أسرة شريفة كبيرة النفوذ ، وتتلمذ على سقراط ، وصحبه حتى النهاية ، وجاء إلى مصر وأمضى فيها عاما ، اتصل خلاله بالمدرسة الكهنوتية فى عين شمس ، ثم عاد إلى وطنه ، وتوفى عام ٣٤٧ ق . م . ، وترك عددا من المؤلفات ، من بينها : « سقراط » ، و « المأدبة » و « فيدون » و « الجمهورية » ، وغيرها .

● **بزرجمهر** : وزير كسرى أنو شروان ملك فارس ، ومؤدب ابنه هورمزد ، الذى خلف أباه على العرش ، وبعض الروايات تنسب إليه ترجمة « كليلة ودمنة » من الهندية إلى الفارسية ، ولكن برويز الذى تولى الملك بعد هرمزد أعدمه .

الفاسد لك على مخالفته ، وأنت ناجٍ من المكاره ، خيرٌ لك مِن أنْ يعذرك ، ويندم كلا كما ، وأنت قد حصلت فى مكاره .

إيَّاكَ وأنْ تسرَّ غيرَكَ بما تسوء به نفسَكَ ، فيما لم توجِبْهُ عليك شريعةٌ أو فضيلة .

وقفَ العلمُ عند الجهلِ بصفات البارى عزّ وجلّ (٧) .

لا آفة على العلوم وأهلها أضرّ من الدخلاء فيها ،

---

(٧) اختلف علماء التوحيد فيما يتصل بصفات الله :

المعتزلة يرون أن وحدته تقتضى ألاّ تكون له صفة زائدة عن الذات ، وما ورد فى الكتاب والسنة من آثار تثبت أن له عرشا ، أو وجها ، أو يدا ، أو نحوها ، يجب أن يؤول تأويلا يلائم الوحدة المطلقة المجرّدة ، ووحدته تقتضى ألاّ تكون له صفة زائدة عن الذات ، وما جاءت به النصوص من صفاته الثبوتية مثل العلم والقدرة لا يفيد شيئا خارجا عن حقيقته ، فالله عالم وقادر بذاته ، وهكذا .

وخالف السلفُ المعتزلة ، فقبلوا النصوص الواردة بالجسمية والمكانية على ظاهرها بلا كيف ولا تشبيه ، فلله عرش لا كالعروش ، ويد لا كالأيدى ، وعزوا إليه صفات متميزة عن الذات كالعلم والحياة والسمع والبصر والإرادة .

وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون ويقدّرون أنهم صالحون .

مَن أرادَ خيرَ الآخرة ، وحكمةَ الدنيا ، وعدْلَ السيرة ، والاحتواءَ على محاسن الأخلاق كلها ، واستحقاقَ الفضائل بأسرها ، فليقتدِ بمحمد رسول

= وسلك الأشاعرة طريقا وسطا ، فسلموا بالصفات التى قال بها السلف ، إلاّ أنهم فسّروها تفسيرا معنويا يقرب بها من آراء المعتزلة ، فأثبتوا لله صفات وجودية كالعلم والقدرة والإرادة على أنها معانى أزلية قائمة بالذات ، ولم يستطيعوا أن ينكروا أن لله عرشا ووجها ويدا ، وغيرها مما ورد فى الكتاب والسنة ، ولكنهم يقبلونها من غير كيف ولا تشبيه ، ويجيزون تأويلها على نحو ما فعل المعتزلة .

ويرى ابن حزم أنه لا يصح استخدام القياس أو العقل عند الحديث عن الصفات الإلهية ، ومقارنتها بصفات الكمال الإنسانى ، ويجب التوقف عن الأخذ بشىء منها ، « لأن الله تعالى لم ينص قط فى كلامه المنزل على لفظ الصفات ، ولا على لفظ الصفة ، ولا حفظ عن النبى ﷺ بأن لله تعالى صفة ، أو صفات . نعم ، ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار التابعين ، ولا عن أحد من خيار تابعى التابعين » .

● الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ج ٢ ص ١٢٠ ، طبعة القاهرة ١٣٢١ هـ .

ويتفق الإمام محمد عبده مع ابن حزم فى رأيه تماما ، ويرى أن البحث فى هذا عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى إلى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدى إلى الخبط فى الاعتقاد ، ويصدر بحثه فى هذا بالحديث النبوى : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

● رسالة التوحيد ، ص ٤٨ وما بعدها ، الطبعة ١١ ، القاهرة ١٣٦٥ هـ.

الله ، ﷺ ، وليستعملْ أخلاقَهُ وسِيَرَه ، ما أمكنه ، أعاننا الله على الإتساء به [٨] ، بمنِّهِ ، آمين [٩] .

غاظنى أهلُ الجهلِ مرّتيْن مِن عمرى : إحداهما ، بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلى . والثانية ، بسكوتهم عن الكلام بحضرتى ، فهم أبدا ساكتون عما ينفعهم ، ناطقون فيما يضرهم .

وسرّنى أهلُ العلم مرّتيْن مِن عمرى : إحداهما ،

---

(٨) الاتساء : الاقتداء .

(٩) هذه الفقرة ذات أهمية خاصة لدراسة تطور المفهوم الأخلاقى فى الإسلام . ففى القرون الأولى من حياته كان الصحابة بوصفهم بشرا عاديين المثل الأعلى فى الأخلاق ، الذى يمكن ، ويجب ، أن يحتذى .

ثم تقدم الأمر خطوة ، كما نرى فى نص ابن حزم هذا ، فأصبح الاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فى أخلاقه وسيرته ، بقدر ما يتاح لنا ، وفى حدود إمكاننا .

وفيما بعد ابن حزم دفع **الصوفية** بالأمر خطوة ثالثة إلى الأمام ، فرأى **الإمام الغزالى** أن هناك مثلين عاليين للكمال يقتدى بهما ، النبى لعامة الناس ، والله لمن يطلبون الكمال الصوفى . انظر :

- إحياء علوم الدين ، ج ٢ ص ٢٤٨ ، طبعة القاهرة ١٣١٢هـ .
- مقاصد الفلسفة ، ص ٢٣ ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ .

بتعليمى أيام جهلى ، والثانية ، بمذاكرتى أيام علمى .

مِن فَضْلِ العلم والزهد فى الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عزّ وجلّ إلاّ لأهلها ومستحقهما ، ومِن نَقْصِ علوّ أحوالِ الدنيا من المال والصوت أنّ أكثر ما يقعان فى غير أهلها ، وفيمن لا يستحقها .

مَن طَلَبَ الفضائل لم يساير إلاّ أهلَها ، ولم يُرافق فى تلك الطريق إلاّ أكرم صديق ، من أهل المواساة والبِرّ والصدق وكرم العشيرة ، والصبر والوفاء والأمانة والحلم ، وصفاء الضمائر وصحة المودّة .

ومَن طَلَبَ الجاهَ والمال واللذات لم يساير إلاّ أمثالَ الكلاب الكَلِبة ، والثعالبِ الخَلِبة [١٠] ، ولم يرافق فى تلك الطريق إلاّ كلّ عدوّ المعتقد ، خبيث الطبيعة .

منفعةُ العلمِ فى استعمال الفضائل عظيمة ، وهو أنّه

---

(١٠) الخلبة : الخادعة .

يُعلِّم حسن الفضائل فيأتيها ولو فى النُّدْرة ، ويُعلِّم قُبْح الرذائل فيجتنبها ولو فى الندرة ، ويُسمع الثناءَ الحسن فيرغِّب فى مثله ، والثناءَ الردىء فينفِّر منه ، فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصّةٌ فى كل فضيلة ، وللجهل حصّةٌ فى كل رذيلة . ولا يأتى الفضائل ممن لم يتعلم العلمَ إلاّ صافى الطبع جدا ، فاضل التّركيب ، وهذه منزلة خُصّ بها النبيون عليهم الصلاة والسلام ، لأن الله تعالى علمهم الخير كله دون أن يتعلموه من الناس .

وقد رأيت من غِمار[١١] العامة مَن يجرى مِن الاعتدال ، وحميد الأخلاق ، إلى ما لا يتقدمه فيه حكيمٌ عالم رائض[١٢] لنفسه ، ولكنه قليل جدا . ورأيت ممن طالع العلوم ، وعرف عهود الأنبياء عليهم

(١١) الغمار : الجمع المزدحم المتكاثف .
(١٢) راض نفسه : طوّعها وعلّمها .

السلام ، ووصايا الحكماء ، وهو لا يتقدمه فى خبث السيرة ، وفساد العلانية والسريرة ، شِرارُ الخلق ، وهذا كثير جدا ، فعلمت أنهما مواهب وحرمان من الله تعالى .

٤

فصل فى الأخلاق والسِّيَر

إحرص على أَنْ توصف بسلامة الجانب ، وتحفَّظ مِن أَنْ توصف بالدهاء ، فيكثر المتحفِّظون منك ، حتى ربما أضرّ ذلك بك ، وربما قَتَلكَ .

وَطِّنْ نفسَك على ما تكره يقلّ همُّكَ إذا أتاك ، ولم تستضرّ بتوطينك أوّلاً ، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قَدَّرْتَهُ .

إذا تكاثرت الهموم سقطت كلُّها .

الغادرُ يفى للمجدود[1] ، والوفىّ يغدر بالمحدود ،

---

(١) المجدود : المحظوظ .

والسعيد كل السعيد فى دنياه مَن لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان .

لا تفكرّ فيمن يؤذيك ، فإنّك إنْ كنتَ مقبلا فهو هالك وسعدُك يكفيك ، وإنْ كنتَ مدبرًا فكلّ أحدٍ يؤذيك .

طوبَى لمن علم مِن عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها .

الصبرُ على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام :
فصبرٌ عمّن يقدِر عليك ولا تقدر عليه .
وصبرٌ عمّن تقدر عليه ولا يقدر عليك .
وصبرٌ عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك .

فالأوّلُ ذلٌّ ومهانة ، وليس من الفضائل ، والرأىُ لمن خَشِىَ ما هو أشدُّ مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة .

والثانى فضلٌ وبِرٌّ ، وهو الحِلْمُ على الحقيقة ، وهو

الذى يوصف به الفضلاء .

والثالث ينقسم قسمين : إمّا أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلاّ على سبيل الغلط ، ويعلم قُبْحَ ما أتى به ، ويندم عليه ، فالصبرُ عليه فضلٌ وفرض ، وهو حِلْمٌ على الحقيقة . وأمّا مَن كان لا يدرى مقدار نفسه ، ويظن أنّ لها حقًّا يستطيل به ، فلا يندم على ما سلف منه ، فالصبرُ عليه ذلٌّ للصابر ، وإفسادٌ للمصبور عليه ، لأنه يزيد استشراءً[٢] ، والمقارضة[٣] له سُخْفٌ ، والصواب إعلامه بأنه كان ممكنًا أنْ يُنْتَصَرَ منه ، وأنّه إنّما تُرِك ذلك إسترذالاً له فقط ، وصيانةً عن مراجعته ، ولا يزاد على ذلك .

وأمَّا جفاءُ السِّفْلَةِ فليس جزاؤه إلاّ النَّكَال[٤] وحده ./

---

(٢) استشراء : تفاقما .

(٣) المقارضة : مقابلة السوء بمثله .

(٤) النكال : العقاب .

مَن جالسَ الناسَ لم يعدَم همّاً يؤلم نفسه ، وإثماً يندم عليه فى معاده ، وغيظاً ينضج كبده ، وذلاًّ ينكس همته ، فما الظن بعدُ بمن خالطهم وداخلهم ، والعزُّ والراحة والسرور والسلامة فى الانفراد عنهم ، ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها ، ولا تخالطها .

لو لم يكن فى مجالسة الناس إلاّ عيبان لكفيا : أحدهما الاسترسال عند الأُنس بالأسرار المهلكة القاتلة ، التى لولا المجالسةُ لم يبح بها البائح . والثانى مواقعة الغلبة المهلكة فى الآخرة ، فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البليّتين إلاّ بالانفراد عن المجالسة جملة .

لا تحقِرْ شيئًا من عَمَلِ غدٍ أنْ تحقّقه ، بأنْ تُعجله اليوم وإنْ قلّ ، فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها ، وربما أعْجزَ أمرها عند ذلك ، فيبطل الكل .

لا تحقر شيئًا مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أنْ

تَعجَله الآن ، وإنْ قلّ ، فإنّه يحط عنك كثيرا لو اجتمع لقذف بك فى النار(٥) .

الوجعُ ، والفقر ، والنكبة ، والخوف ، لا يحسّ أذاها إلاّ مَن كان فيها ، ولا يعلمه مَن كان خارجاً عنها . وفسادُ الرأيِ ، والعار ، والإثم ، لا يعلم قبحها إلاّ مَن كان خارجاً عنها ، وليس يراه من كان داخلاً فيها .

الأمنُ ، والصحة ، والغنى ، لا يعرف حقّها إلا

---

(٥) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى الآية ٤٧ من سورة الأنبياء ، وهى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » . وقد فهم كثير من **علماء المالكية فى الأندلس** الآية فهما حرفيا ، وتصوروا ميزانا بكفتين ، توضع الحسنات فى واحدة منهما ، والسيئات فى الأخرى . أما **المعتزلة ، وفلاسفة المسلمين** ، فقد فهموا الآية على إنها إشارة إلى عدل الله . وقبل **ابن حزم** الأمر فى كتابه « **الفصل** » على ظاهره فيما يتصل بالميزان ، تمشيا مع مذهبه الظاهرى ، ولكنه توقف عن تقديم أى تفسير ، أو الدخول فى التفصيلات . انظر :

- الفصل ، ج ٤ ، ص ٦٥ و ٦٦ .
- **خوليان ريبيرا** : التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية . ترجمة د. **الطاهر أحمد مكى** ، ص ١١٣ و ١١٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

من كان خارجًا عنها ، وليس يعرف حقها من كان فيها . وجودة الرأى ، والفضائل ، وعمل الآخرة ، لا يعرف فضلها إلاَّ مَن كان مِن أهلها ، ولا يعرفه مَن لم يكن من أهلها .

أوّلُ مَن يزهدُ فى الغادرِ مَن غدر له الغادر .

وأوّل من يمقتُ شاهدَ الزور من شهِد له به .

وأوّل من تهون الزانيةُ فى عينه الذى يزنى بها .

ما رأينا شيئًا فسد فعاد إلى صحته إلاّ بعد لأْيٍ[٦] ، فكيف بدماغٍ يتوالى عليه فسادُ السُّكْرِ كل ليلةٍ ، وإنَّ عِقلاً زيّن لصاحبه تعجيلَ إفساده كل ليلة لعقلٌ ينبغي أن يتَّهَم .

الطريقُ تُبرم[٧] ، والزوايا[٨] تُكْرم ، **وكثرةُ المالِ**

---

(٦) اللأى : الإبطاء ، والشدة ، والاحتباس .

(٧) تبرم : تضجر .

(٨) الزوايا : جمع زاوية ، وكانت فى الأندلس على ما عليه الحال الآن فى شمال

تُرغب ، وقِلّته تُقنع .

قد يَنْحس العاقلُ بتدبيره ، ولا يجوز أنْ يسعد الأحمق بتدبيره .

لا شيءَ أضرَّ على السلطان من كثْرة المتفرِّغين حواليه ، فالحازمُ يشغلهم بما لا يظلمهم فيه ، فإنْ لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه .

وأما مُقرِّبُ أعدائه فذلك قاتلُ نفسه .

كَثْرَةُ وقوعِ العيْن على الشخص يُسهِّلُ أمرَه ويهوِّنه .

التهويلُ بلزوم تَزِيٍّ ما ، والاكفهرار(٩) ، وقِلّةُ الانبساط ، ستائرُ جعلها الجهّالُ الذين مكَّنتهم الدنيا أمام جهلهم .

لا يغترُّ العاقلُ بصداقةٍ حادثة له أيّام دولته ، فكلُّ

أفريقيا ، وفى صعيد مصر : مكان يضم مسجدا للصلاة ، ومدرسة للتربية ، ومأوى لاستقبال السائرين مجانا .

(٩) الاكفهرار : العبوس .

أحدٍ صديقُه يومئذٍ .

إجهد فى أنْ تستعين فى أمورك بمن يريد منها لنفسه مثل ما تريد لنفسك ، ولا تستعن فيها بمن حظّه مِن غيرك كحظّه منك .

لا تُجبْ عن كلامٍ نُقِلَ إليك عن قائلٍ حتى توقن أنّه قاله ، فإنّ من نقل إليك كذبا رجع مِن عندك بحق .

ثِقْ بالمتديِّن وإنْ كان على غير دينك ، ولا تَثِقْ بالمستخفِّ وإنْ أظهر أنّه على دينك .

مَن استخفَّ بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيءٍ مما تشفق عليه .

وجدتُ المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم . هذا شيء طال اختبارى إيّاه ، ولم أجد قط على طول التجربة سواه ، فأعيتنى معرفةُ العلّة فى

ذلك ، حتى قدّرتُ أنَّها طبيعة فى البشر.

مِن قبيح الظلم الإنكارُ على مَن أكْثَرَ الإساءةَ إذا أحسنَ فى النُّدْرة (١٠) .

من استراح من عدوٍّ واحد حدث له أعداء كثيرة .

أَشْبَهُ ما رأيت بالدنيا خيالُ الظلِّ ، وهى تماثيل مُرَكَّبَةٌ على مطحنة خشب ، تُدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى (١١) .

---

(١٠) الندرة : القلة .

(١١) هذه الفقرة بالغة الأهمية فى التأريخ لفن خيال الظل ، لأنها تعنى أنه وجد فى الأندلس فى فترة مبكرة ، تعود إلى أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، ويرجح الدارسون أن هذه اللعبة وفدت إلى مصر خلال العصر الفاطمى ، من الصين ، أو الهند ، أو جاوة ، وانتقلت من مصر إلى الأندلس ، وكانت العلاقات التجارية بين البلدين متواصلة وقوية ، والرحلات العلمية لا تتوقف ، وكان عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى ، مصريا يتاجر فى الأقمشة ، وعالمًا جليلا ، ومحدِّثا متبحراً فى الوقت نفسه ، وكان أستاذا لابن حزم ، ولا يذكره هذا فى طوق الحمامة إلاّ مسبوقا بكلمة « أستاذى » .

وقد أشار ابن حزم ، فى كتابه « الفصل » ، إلى لعبة خيال الظل مرتين : المرة الأولى فى ج ١ ص ١١٠ ، حيث يقول : « وقد فضحت أنا حيلة أبى محمد المعروف بالمخرق فى الكلام المسموع بحضرته ولا يرى المتكلم ، وسمت بعض أصحابه أن يسمعنى ذلك فى مكان آخر ، أو بحيث الفضاء دون بنيان فامتنع من ذلك ، فظهرت الحيلة . وإنما هى قصبة مثقوبة توضع وراء=

طال تعجُّبِى فى الموت ، وذلك أنى صحبتُ أقواما صُحْبة الروح للجسد مِن صِدْقِ المودّة ، فلما ماتوا رأيتُ بعضهم فى النوم ، ولم أر بعضهم ، وقد كنتُ عاهدتُ بعضهم فى الحياة على التزاور فى المنام بعد الموت ، إنْ أمكن ذلك ، فلم أره فى النوم بعد أن تقدّمنى إلى دار الآخرة ، فلا أدرى أَنَسِىَ أم شُغِل .

= الحائط على شق خفى ، ويتكلم الذى طرف القصبة على فيه ، على حين غفلة ممن فى المسجد ، كلمات يسيرة ، الكلمتين والثلاث لا أكثر من ذلك ، فلا يشك من فى البيت مع المخرق الملعون فى أن الكلام اندفع بحضرتهم ، وكان المتكلم فى ذلك محمد بن عبد الله الكاتب صاحبه » .

والمرة الثانية فى ج ٥ ص ٦ ، حيث يقول : « ... كما يفعل العجائبى الذى يضرب بسكينة فى جسم إنسان ، فيظن من رآه ، ممن لا يدرى حيلته ، أن السكين غاصت فى جسد المضروب ، وليس كذلك ، بل كان نصاب السكين منقوبا فقط ، فغاصت السكين فى النصاب . وكإدخاله خيطا فى حلقة خاتم يمسك إنسان غير متهم طرفى الخيط بيديه ، ثم يأخذ العجائبى الخاتم الذى فيه الخيط بفيه ، وفى ذلك المقام أدخله تحت يده ، وكان فيه خاتم أخرى ، يرى من حضر حلقة الخاتم الذى فى فيه ، يوهمهم أنه قد أخرجه من الخيط ، ثم يرد فمه إلى الخيط ، ويرفع يديه وفمه فينظر الخاتم الذى كان فيه الخيط » .

وهى أشارات أهملها تماما ، على أهميتها ، الذين أرخوا للعبة « خيال الظل » ، أوربيين وعربا ، وزعموا أنه انتقل إلى أوربا عن طريق إيطاليا ، مرورا بمصر ، بعد الغزو العثمانى ، والحق أن هذا الفن كان فى الأندلس قبل ذلك بزمن طويل . انظر :

● إبراهيم حمادة : خيال الظل وتمثيليات ابن دنيال ، دراسة وتحقيق ، القاهرة ١٩٦٣ .

غفْلةُ النفسِ ونسيانُها ما كانت فى دار الابتلاء قبل حلولها فى الجسد كغفلة من وقع فى طين غمر(١٢) عن كل ما عُهِدَ وعُرِفَ قبل ذلك . ثم أطلت الفكر أيضا فى ذلك فلاحَ لى شِعْبٌ(١٣) زائد من البيان ، وهو أنى رأيتُ النائم إذ همّتْ نفسه بالتخلّى من جسده ، وقوِىَ حسُّها حتى تشاهد الغيوب ، قد نسيت ما كان فيه قبيل نومها نسيانا تاما ألبتة ، على قرب عهدها به ، وحدثت لها أحوالٌ أُخر ، وهى فى كل ذلك ذاكرة حسّاسة ، متلذِّذة آلمة ، ولذة النوم محسوسة فى حاله ، لأنَّ النائم يلتذّ ويحتلم ، ويخاف ويحزن فى حال نومه(١٤) .

---

(١٢) غمر : كثير وواسع .

(١٣) شعب : ناحية ، أو طريق ، أو انفراج بين جبلين .

(١٤) فى هذه الفقرة ، والتى قبلها ، يشير ابن حزم إلى مشكلتين هامتين من مشاكل فلسفة ما وراء الطبيعة ، وشغلا جميع المفكرين ، وهما : حياة النفس الإنسانية بعد الموت ، وسابق وجودها قبل أن تحل فى الجسد . ومذهب ابن حزم كما يقرره فى كتابة « **الفصل** » : أن النفس لا تفنى بفناء الجسد ، وإنما تبقى بعده ، وتحيا فى « البرزخ » إلى يوم البعث ، فتعود=

إنّما تأنس النفسُ بالنفس ، فأمّا الجسد فمستثقل مهروم(١٥) به ، ودليل ذلك استعجالُ المرء بدفن جسد حبيبه إذا فارقته نفسُه ، وأسفه لذهاب النفس وإن

= وتتحد معه من جديد ، لتدخل الجنة أو النار . وأن نفوس الأنبياء والشهداء فقط هي التي تدخل الجنة لحظة موتها . والمذهب السائد بين أهل السنة أن النفوس لا تنتظر في « البرزخ » حتى البعث ، وإنما تبقى في جانب من القبر حيث يدفن الجسد ، ويصف ابن حزم حياة النفوس في هذه المرحلة الانتقالية بأنها روحية خالصة .

والمشكلة الثانية تتصل بوجود النفس قبل أن تحل في البدن ، ويقدم لنا ابن حزم في هذا حلا غير منتظر ، إذا أخذنا نقده العنيف لاتباع الفلسفة المشائية في الإسلام ، وكثيرا ما يتهمهم بالكفر والزندقة . فهو يرى في وضوح أن الله خلق النفوس الإنسانية كلها دفعة واحدة ، قبل أن تحل في أجسادها ، ووضعها في « البرزخ » ، ومنه تخرج لتحل كل نفس في جسدها ، أي النفوس كانت موجودة في «البرزخ» قبل أن تحل في الأجسام ، وإليه تعود بعد أن تفارقها .

ورأى ابن حزم هذا لا يبعد كثيرا عن رأى الأفلاطونية الجديدة ، فهم يرون أن النفس جوهر كامل بذاتها ، وأن اتحادها مع الجسد عارض ، ويلقي ستارا على ذكرياتها عن حياتها قبل أن تحل بالجسد ، ولهذا ترى أن الجسد سجن معتم ، يُصعّب عمل النفس الجوهري ، وهو – كمادة مبتذلة ، وغير صافية – يشوه صفاءها الجوهري والفطري ، ويلوّثه ، انظر :

● ابن حزم : الفصل ، ج ٢ ص ١٠٦ ، وج ٤ ص ٧١ ، وج ٥ ص ٨٨ ، وج ٦ ص ٦٩ .

● الدكتور إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، ص ١٤٨ وما بعدها ، القاهرة ١٣٦٧هـ – ١٩٤٧م .

(١٥) مهروب : مضعوف به .

كانت الجثة حاضرة بين يديه .

لم أر لإبليس أصيد ، ولا أقبح ، ولا أحمق ، من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته : إحداهما اعتذار من أساء بأن فلانًا أساء قبله . والثانية استسهال الإنسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس ، أو أن يسيء فى وجه ما ، لأنه قد أساء فى غيره ، فقد صارت هاتان الكلمتان عذرا ، مُسهِّلَتَيْنِ للشرِّ ، ومُدْخِلَتَيْنِ له فى حدّ ما يُعرف ، ويُحمل ، ولا يُنكر .

اسْتَعْمِلْ سوءَ الظن حيث تقدر على توفيته حقّه فى التحفظ والتأهُّب ، واستعملْ حسنَ الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ فتربح راحة النفس .

حدُّ الجودِ وغايته أنْ تبذل الفضل كله فى وجوه البرِّ ، وأفضل ذلك فى الجار المحتاج ، وذى الرَّحِمِ الفقير ، وذى النعمة الذاهبة ، والأحضر فاقة . ومنع

الفضل من هذه الوجوه داخل فى البخل ، وعلى قدر التقصير والتوسُّع فى ذلك يكون المدح والذم ، وما وُضِعَ فى غير هذه الوجوه فهو تبذير ، وهو مذموم . وما بذلتَ من قوتك لمن هو أمسُّ حاجة منك فهو فضل وإيثار ، وهو خير من الجود ، وما مَنع من هذا فهو لا حمدٌ ولا ذمّ ، وهو انتصاف .

بَذْلُ الواجباتِ فرضٌ ، وبَذْلُ ما فضل عن القوت جودٌ ، والإيثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل ، ومنع الواجبات حرام .

ومَنْعُ ما فضل عن القوت بخلٌ وشح ، والمنعُ من الإيثار ببعض القوتِ عذرٌ ، ومنعُ النفس ، أو الأهل ، القوتَ أو بعضه نَتْنٌ ورذالة ومعصية . والسخاءُ بما ظلمتَ فيه ، أو أخذتَهُ بغير حقّه ، ظلمٌ مكرّر ، والذمّ جزاءُ ذلك لا الحمد ، لأنك إنما تِبذل

مال غيرك على الحقيقة لا مالك ، وإعطاءُ الناسِ حقوقهم مما عندك ليس جودا ولكنه حق .

حَدُّ **الشجاعة** بذلُ النفس للموت عن الدين والحريم ، وعن الجار المضطهد ، وعن المستجير المظلوم ، وعن الهضيمة(١٦) ظلماً فى المال والعرض ، وفى سائر سُبُلِ الحق ، سواءٌ قلّ من يُعارض أو كثُر ، والتقصيرُ عما ذكرنا جبنٌ وخورٌ . وبَذْلُها فى عَرَض الدنيا تهوّرٌ وحُمْقٌ ، وأحمق من ذلك من بذلها فى المنع عن الحقوق والواجبات قِبَلَكَ أو قِبَلَ غيرك ، وأحمقُ من هؤلاء كلّهم قومٌ شاهدتُهم لا يدرون فيما يبذلون أنفسهم ، فتارةً يقاتلون زَيْدًا عن عمرو ، وتارة يقاتلون عمرًا عن زَيْد ، ولعلّ ذلك يكون فى يوم واحد ، فيتعرضون للمهالك بلا معنى ، فينقلبون إلى النار ،

---

(١٦) الهضيمة : الظلم والغصب .

أو يفرّون إلى العار ، وقد أنذر بهؤلاء رسولُ الله ﷺ في قوله : « يأتى على الناس زمانٌ لا يدرى القاتلُ فيم قَتَل ، ولا المقتولُ فيم قُتِل »[١٧] .

حدُّ **العفّة** أن تغضّ بصرك وجميعَ جوارحك عن الأجسام التى لا تحلُّ لك ، فما عدا هذا فهو عُهْرٌ ، وما نقص حتى يُمْسِك عما أحلّ الله تعالى فهو ضعفٌ وعجز .

حدُّ **العدل** أنْ تُعطى من نفسك الواجب وتأخذه .

---

(١٧) يرى أسين بلاثيوس فى تعليقه على هذه الفقرة ، فى ترجمته الكتاب إلى الإسبانية ، أن ابن حزم يشير ، دون أدنى شك ، إلى سلسلة المؤامرات ، والفتن ، والاضطرابات السياسية ، التى أسالت الدماء حول خلفاء بنى أمية فى أواخر عصر الحجابة ، بعد موت المظفر عبد الملك عام ٣٩٩هـ = ١٠٠٩م ، وأوائل عصر الطوائف الذى تلاه ، وكان الصراع عنيفا ، ولا يجرى على سنن مألوف ، ولا يلتزم خلقا متبعا ، واستخدم الناس السلاح لتحقيق أحقر الطموحات ، وقد شهد ابن حزم كل هذا بعينه ، وشارك بنفسه فى أحداثه الأولى . انظر :

- مقدمة هذا الكتاب .
- د . الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الفصل الخاص بفتنة البربر ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ م .

وحدُّ الجوْر أنْ تأخذه ولا تعطيه .

وحدُّ الكرم أنْ تُعطى من نفسك الحقّ طائعًا ، وتتجافى عن حقّك لغيرك قادرًا ، وهو فضل أيضا ، وكلُّ جودٍ كرمٌ وفضل ، وليس كلُّ كرمٍ وفضلُ جودًا ، فالفضل أعمّ ، والجود أخص ، إذ الحِلْمُ فضلٌ وليس جودا ، والفضل فرضٌ زِدْتَ عليه نافلة .

إهمال ساعة يفسد رياضة سنة .

خطأُ الواحد فى تدبير الأمور خيرٌ من صواب الجماعة التى لا يجمعها واحد ، لأن خطأ الواحد فى ذلك يُسْتدرك ، وصوابُ الجماعة يُضْرِى[18] على استدامة الإهمال ، وفى ذلك الهلاك .

نوّارُ الفتنةِ لا يَعْقِد[19] .

كانت فىَّ عيوبٌ ، فلم أزل بالرياضة ، واطلاعى

---

(١٨) يُضرى : يجعلها تولع به وتعتاده .

(١٩) شبه الفتنة بزهرة الثمرة التى تموت قبل أن تتفتح وتعطى ثمرتها .

على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخّرين والمتقدمين فى الأخلاق وفى آداب النفس ، أُعانى مداواتها حتّى أعان الله عزّ وجلّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومنِّهِ . وتمامُ العدل ، ورياضة النفس ، والتصرُّف بأزمَّة الحقائق ، هو الإقرار بها ، ليتّعظ بذلك متَّعظٌ يوما إن شاء الله .

فمنها كَلَفٌ فى الرضاء ، وإفراطٌ فى الغضب ، فلم أزل أداوى ذلك حتّى وقفتُ عند ترْك إظهار الغضب جُمْلةً بالكلام والفعل والتخبُّط ، وامتنعتُ مما لا يحِلّ من الانتصار ، وتحمّلْتُ من ذلك ثِقَلاً شديدا ، وصبرتُ على مضض مؤلم ، كان ربّما أمرضنى وأعجزنى ذلك فى الرضى ، وكأنِّى سامحتُ نفسى فى ذلك ، لأنها تمثَّلَتْ أنَّ تَرْكَ ذلك لؤم .

ومنها دعابةٌ غالبة ، فالذى قَدَرْتُ عليه فيها

إمساكى عما يُغضب الممازحَ ، وسامحت نفسى فيها إذ رأيتُ تركها من الانغلاق ، ومضاهيًا للكِبْر .

ومنها عُجْبٌ شديد ، فناظرَ عقلى نفسى بما يعرفه من عيوبها ، حتى ذهب كله ، ولم يبق له — والحمدُ لله — أثرٌ ، بل كلَّفْتُ نفسى احتقارَ قدرها جُمْلَةً ، واستعمال التواضع .

ومنها حَرَكاتٌ كانت تولِّدُها غَرارةُ[٢٠] الصِّبا ، وضِعْفُ الإغضاء ، فقصرتُ نفسى على تركها فذهبت[٢١] .

ومنها مَحَبَّةٌ فى بُعْدِ الصيت والغلبة ، فالذى وقفتُ عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عمّا لا يحل فى الديانة ، والله المستعان على الباقى ، مع أنَّ ظهور

---

(٢٠) الغرارة : الغفلة .

(٢١) لم يشر ابن حزم إلى ماهية ، أو طابع ، هذه الحركات التى ولدتها لديه غرارة الصبا ، وترك الأمر غائمًا .

النفس الغضبيَّة إذا كانت منقادةً للناطقة فضلٌ وخلقٌ محمود (٢٢) .

ومنها إفراطٌ فى الأَنَفَةِ بَغَّضَتْ إلىَّ إنكاحَ الحُرَمِ جُمْلَةً ، بكلِّ وجه ، وصعَّبَتْ ذلك فى طبيعتى ، وكأنِّى توقَّفْتُ عن مُغالبةِ هذا الإفراط الذى أعرف قبحه ، لعوارض اعترضت علىَّ ، والله المستعان (٢٣) .

ومنها عيبان قد سترهما الله تعالى ، وأعان على مقاومتهما ، وأعان بلطفه عليهما ، فذهب أحدهما ألبتَّة

---

(٢٢) لعل ابن حزم يشير فى هذه الفقرة إلى ما كان من اندفاعه وشدته فى جدله وحواره الشفوى ، وإلى ما تتسم به كتبه من عنف وحدة .

(٢٣) أرجح أن ابن حزم يشير فى هذه الفقرة إلى قصة حبه ، وهو فتى ، للفتاة التى كانت تعيش فى قصر والده ، وهى قصة رائعة ، ومثيرة ، وصفها لنا ابن حزم نفسه تفصيلا فى كتابه « طوق الحمامة » ، وأثارت برقتها وعذوبتها جدلا عنيفا عن حب ابن حزم وطبيعته ، وعن أسرته وأصولها . أنظر القصة فى :

- طوق الحمامة لابن حزم ، ص ١٤٤ وما بعدها ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .
- غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس ، فى كتابنا : دراسات عن ابن حزم ، وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ م .

ولله الحمد ، وكأنّ السعادة كانت موكَّلةً بى ، فإذا لاح منه طالعٌ قصدت طمسه ، وطاولنى الثانى منهما ، فكان إذا ثارت منه مدوده[٢٤] نبضتْ عروقه ، فيكاد يظهر ، ثم يسَّرَ الله تعالى قَدْعَه[٢٥] بضروب من لطفه تعالى حتى أخلد[٢٦] .

ومنها حِقْدٌ مُفْرِطٌ ، قَدَرْتُ بعون الله تعالى على طَيِّهِ وسَتْره ، وغلبتُه على إظهار جميع نتائجه ، وأمَّا قطعه البتة فلم أقدر عليه ، وأعجزنى معه أنْ أُصادق من عادانى عداوة صحيحة أبدا .

وأمّا سوء الظن فيعدُّه قومٌ عيبًا على الإطلاق ، وليس كذلك ، إلاّ إذا أدّى صاحبَه إلى ما لا يحلُّ فى

---

(٢٤) مدوده : جمع مد ، وهو فى الأصل السيل وكثرة الماء ، واستخدمه ابن حزم مجازا .

(٢٥) قدعه : كفّه ومنعه .

(٢٦) آثر ابن حزم ألاّ يفصح عن هذين العيبين عنده ، وليس لنا أن نحاول استنتاجها ، أو الوصول إليهما ، مادام أراد لنفسه ألاّ يصرح بهما ، ومن غير شك إنهما مما يخجل .

الديانة ، أو إلى ما يقبح فى المعاملة ، وإلاّ فهو حزمٌ ، والحزم فضيلة .

وأمَّا الذى يَعيبنى به جُهَّالُ أعدائى ، من أنى لا أبالى فيما أعتقده حقًّا عن مخالفة مَن خالفتُه ، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ، وأنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعوّدوه لغير معنى ، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها ، ولعمرى لو لم تكن فىَّ — وأعوذ بالله — لكانت من أعظم مُتَمنَّياتى وطلباتى عند خالقى عزّ وجلّ ، وأنا أُوصى بذلك كلَّ من يبلغه كلامى ، فلن ينفعه اتّباعه الناسَ فى الباطل والفضول إذا أسخطَ ربَّه تعالى ، وغَبَنَ عقلهَ ، أو آلمَ نفسَه وجسده ، وتكلّف مؤونةً لا فائدة فيها .

وقد عابنى أيضا بعضُ من غاب عن معرفة الحقائق

أنّى لا آلمُ لنيل من نال منى ، وأنّى أتعدّى ذلك من نفسى إلى إخوانى ، فلا أمتعضُ لهم إذا نِيل منهم بحضرتى . وأنا أقول إنَّ من وصفنى بذلك فقد أجملَ الكلامَ ولم يُفسِّره ، والكلام إذا أُجمل اندرج فيه تحسين القبيح ، وتقبيح الحسن . ألا ترى لو أنَّ قائلا قال : إنّ فلانا يطأ أُختَه لفحُش ذلك ، ولاستقبحــه كلُّ سامعٍ له ، حتّى إذا فسّر فقال : هى أختُه فى الإسلام ظهر فُحْشُ هذا الإجمال وقبحه .

وأمّا أنا فإنّى إنْ قلتُ لا آلم لنيْل من نال منى لم أَصْدُق ، فالألم فى ذلك مطبوع مجبول فى البشر كلهم ، لكنّى قد قَصَرْتُ نفسى على أنْ لا أُظهر لذلك غضباً ، ولا تخبُّطًا ، ولا تهيُّجًا ، فإن تيّسر لى الإمساك عن المقارضة جملة بأن أتأهَّبَ لذلك فهو الذى أعتمد عليه بحول الله تعالى وقوّته ، وإن بادرنى الأمر لم أُقارض إلاّ

بكلام مؤلم غير فاحش ، أتحرى فيه الصدق ولا أُخرجهُ مخرجَ الغضب ولا الجهل .

وبالجملة فإنى كارهٌ لهذا إلاّ لضرورة داعية إليه ، مما أرجو به قمعَ المستشرى فى النيل منى ، أو قدعَ الناقلِ إلىَّ ، إذ أكثرُ الناس مُحِبُّون لإسماع المكروه مَن يُسْمعونه إيَّاه على ألْسنةِ غيرهم ، ولا شىءَ أقدع لهم مِن هذا الوجه ، فإنهم يكفُّون به عن نَقْلهم المكاره على ألسنة الناس إلى الناس ، وهذا شىءٌ لا يفيد إلاّ إفساد الضمائر ، وإدخال النمائم فقط .

ثُمَّ بعد هذا فإنَّ النائِلَ منى لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما :

إمَّا أنْ يكون كاذباً وإمَّا أنْ يكون صادقاً ، فإنْ كان كاذباً فلقد عجَّل الله لى الانتصار منه على لسان نفسه ، بأن حصل فى جملة أهل الكذب ، وبأن نبَّه على

فضلى ، بأنْ نسبَ إلىَّ ما أنا منه برىءُ العِرْضِ ، وما يعلم أكثر السامعين له كذبَه ، إمَّا فى وقته ذلك وإمَّا بعد بحثهم عمّا قال .

وإنْ كان صادقا فإنَّه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه : إمّا أنْ أكون شاركتُهُ فى أمر استرحتُ إليه استراحة المرء إلى من يقدِّر فيه ثقة وأمانة ، فهذا أسوأُ الناس حالةً ، وكفى به سقوطًا وضعة . وإمّا أنْ يكون عابنى بما يظن أنّه عيبٌ وليس عيباً ، فقد كفانى جهلُهُ شأنَه ، وهو المعيب لا من عاب . وإمَّا أنْ يكون عابنى بعيبٍ هو فىَّ على الحقيقة ، وعلم منِّى نقصاً أطلق به لسانه ، فإنْ كان صادقاً فنفسى أحقُّ بأنْ ألوم منه ، وأنا حينئذ أجدرُ بالغضب على نفسى مِنِّى على مَن عابنى بالحق .

وأمّا أمْرُ إخوانى فإنى لَسْتُ أُمْسِكُ عن الامتعاض لهم ، لكنى أمتعض امتعاضاً رقيقاً ، لا أزيدُ فيه على

أَنْ أُندِّم القائلَ منهم بحضرتى ، وأجعلُه يتذمَّم ويعتذر، ويخجلُ ويتنصَّل ، وذلك بأنْ أسلُكَ به طريقَ ذمِّ مَن نال مِن الناس ، وأَنَّ نَظَرَ المرءِ فى أمْر نفسه ، والتهمُّم بإصلاحها ، أوْلى به مِن تتبُّع عَثَرات الناس ، وبأَنْ أذكُرَ فضلَ صديقى ، فأُبكِّته على اقتصاره على ذِكْر العيب دون الفضيلة ، وأن أقول له : إنه لا يرضى بذلك فيك ، فهو أولى بالكرم منك ، فلا ترضَ لنفسك بهذا ، أو نحو هذا من القول .

وأمَّا أنْ أُهارش[٢٧] القائل فأحميه ، وأهيج طباعَه ، وأستثيرَ غضبَه ، فينبعث منه فى صديقى أضعافَ ما أكره ، فأنا الجانى حينئذ على صديقى ، والمعرِّضُ له بقبيح السبِّ ، وتكراره فيه ، وإسماعه مَن لم يسمعه ، والإغراء به ، وربما كنتُ أيضًا فى ذلك

---

(٢٧) أهارش : أتحرش وأخاصم .

جانيًا على نفسى ما لا ينبغى لصديقى أن يرضاه لى ، من إسماعى الجفاء والمكروه ، وأنا لا أريد من صديقى أن يَذُبَّ عنى بأكثر من الوجه الذى حدَّدتُ ، فإنْ تعدَّى ذلك إلى أنْ يُسابَّ الناثل منِّى حتى يُولِّد بذلك أنْ يتضاعف النيْلُ ، وأن يتعدى أيضا إليه بقبيح المواجهة ، وربّما إلى أبوىَّ وأَبَوَيْه على قَدْر سَفَهِ الناثل ومنزلته من البذاءة ، وربّما كانت منازعة بالأيدى ، فأنا مُسْتَنْقِصٌ لفعله فى ذلك ، زارٍ(٢٨) عليه ، مُتَظَلِّمٌ منه ، غير شاكر له ، لكنِّى ألومه على ذلك أشدّ اللوم ، وبالله تعالى التوفيق .

وذمَّنى أيضًا بعضٌ من تعسَّف الأمورَ دون تحقيق بأنِّى أُضيِّع مالى . وهذه جملةٌ بيانها أنِّى لا أضيِّع منه إلاّ ما كان فى حفظه نقصُ دينى ، أو إخلاقُ(٢٩)

---

(٢٨) زارٍ : عائب وعاتب .

(٢٩) إخلاق عرضى : المسّ بعرضى .

عرضى ، أو إتعابُ نفسى ، فإنِّى أرى الذى أحفظ من هذه الثلاثة ، وإن قلَّ ، أجلَّ فى العوض مما يضيع من مالى ، ولو أنه كل ما ذرّت[٣٠] عليه الشمس .

ووجدتُ أفضلَ نعم الله على المرء أن يطبعه على العدل وحبِّه ، وعلى الحق وإيثاره ، فما استعنتُ على قَمْعِ هذه الطوالع الفاسدة ، وعلى كل خير فى الدين والدنيا ، إلاَّ بما فى قوتى من ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى .

وأمَّا من طُبِعَ على الجور واستسهاله ، وعلى الظلم واستخفافه ، فلْييْئَس مِن أنْ يُصلح نفسه ، أو يقوِّم طباعه أبدا ، وليَعْلَمْ أنَّه لا يُفلح فى دين ولا فى خلقٍ محمود .

وأما الزهوُ والحسدُ والخيانةُ فلم أعرفها بطبعى قط ،

---

(٣٠) ذرّت : طلعت .

وكأننى لاحمد لى فى تَرْكِها ، لمنافرة جِبِلّتِى إيّاها (٣١) ، والحمد لله رب العالمين .

مِن عَيْبِ حبِّ الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحبّ عاملها أنْ يُذكَر بها ، فكاد يكون شِرْكًا ، لأنّه يعمل لغير الله تعالى ، وهو يطمس الفضائل ، لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حبًّا للخير ، لكن ليذكر به .

أَبْلَغ فى ذَمِّك من مَدَحَكَ بما ليس فيك ، لأنه نبَّه على نَقْصك .

وأَبْلَغ فى مَدْحك من ذَمَّك بما ليس فيك ، لأنّه نبّه على فضلك ، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك ، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة .

لو عَلِمَ الناقصُ نقصَه لكان كاملا .

---

(٣١) منافرة جبلتى : مخاصمة خلقتى وطبيعتى .

لا يخلو مخلوقٌ من عيب ، فالسعيدُ من قلَّتْ عيوبه ودقَّتْ .

أكْثَرُ ما يكون ما لم يُظَن ، فالحزم هو التأهُّب لما يُظَن ، فسبحان مَن رتَّبَ ذلك ليُرِيَ الإنسان عجزَه وافتقاره إلى خالقه عزّ وجلّ .

٥

فصل فى الإخوان والصداقة والنصيحة

استبقاك مَن عاتبك ، وزهد فيك من استهان بسيئاتك .

العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فإماّ تصفو وإماّ تطير .

مَن طوى مِن إخوانك سرّه الذى يعنيك دونك أخوَنُ لك ممن أفشى سرّك ، لأنّ من أفشى سِرّك فإنما خانك فقط ، ومن طوى سرّه دونك منهم فقد خانك واستخونك .

لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزى .

لا تزهد فيمن يرغب فيك ، فإنّه بابٌ من أبواب الظلم ، وتَرْكِ مقارضة الإحسان ، وهذا قبيح .

مَن امتُحِن بأنْ يخالط الناسَ فلا يُلق بوهمه كله إلى مَن صحب ، ولا يبن منه إلاّ على أنّه عدوّ مناصب ، ولا يصبح كلَّ غداةٍ إلاّ وهو مترقِّب من غدر إخوانه ، وسوء معاملتهم ، مثل ما يترقَّب من العدو المكاشف ، فإنْ سَلِمَ من ذلك فلله الحمد ، وإنْ كانت الأخرى ألفى متأهِّباً ولم يمت همّاً .

وأنا أُعلمك أنّ بعض من خالصنى المودة ، وأصفانى إيّاها غاية الصفاء ، فى حال الشدَّة والرخاء ، والسعة والضيق ، والغضب والرضى ، تَغَيّرَ علىَّ أقبح تَغَيُّرٍ بعد اثنى عشر عاماً متصلة فى غاية الصفاء ،

ولسبب لطيف[١] جداً ما قدّرتُ قط أنّه يؤثّر مثلُه فى أحد من الناس ، وما صلح لى بعدها ، ولقد أهَمّنى فى ذلك سنين كثيرةً هماً شديداً[٢] .

ولكن ، لا تستعمل مع هذا سوء المعاملة ، فتُلْحَقَ بذوى الشرارة[٣] من الناس وأهل الخبّ[٤] منهم . ولكن ها هنا طريق وعرة المسلك ، شاقة المُتَكَلَّف ، يحتاج سالكها إلى أنْ يكون أهدى من القطا[٥] ، وأحذر من العَقْعَق[٦] ، حتى يفارق الناس راحلاً إلى

---

(١) لطيف : رقيق .

(٢) لم أستطع أنا ، ولا أحد غيرى ، تحديد شخصية صديق ابن حزم هذا ، الذى يشير إليه .

(٣) الشرارة : الشر والسوء .

(٤) الخب : الخداع والغش .

(٥) القطا : واحده القطاة ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء ، ويتخذ أفحوصه فى الأرض ، ويطير جماعات ، ويقطع مسافات شاسعة .

(٦) العقعق : طائر من الفصيلة الغرابية ، يوصف بالحذر ، ولا يأوى تحت سقف ، والعرب تتشاءم به .

ربه تعالى ، وهذه الطريق هى طريق الفوز فى الدين والدنيا ، يُحرِز صاحبُها صفاء نيات ذوى النفوس السليمة ، والعقود الصحيحة ، البرآء من المكر والخديعة ، ويحوى فضائل الأبرار ، وسجايا الفضلاء ، ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاة ، وتخلُّص الخبثاء ذوى النكراء والدهاء ، وهى : أنْ تكتم سرَّ كلّ مَن وثق بك ، وأنْ لا تُفشى إلى أحد من إخوانك ، ولا مِن غيرهم ، مِن سرِّك ما يمكنك طيَّه بوجه ما من الوجوه ، وإنْ كان أخص الناس بك ، وأن تفى لجميع من ائتمنك ، ولا تأمن أحدًا على شىءٍ من أمرك تُشفِق عليه ، إلاّ لضرورة لابد منها ، فارتَدْ حينئذ واجتهد ، وعلى الله تعالى الكفاية .

وابذلْ فضلَ مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك ، ولكل مَن احتاج إليك وأمكنك نَفْعَه ، وإنْ

لم يعتمدك بالرغبة ، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عزّ وجلّ . ولا تَبْنِ إلاّ على أنّ مَن أحسنت إليه أوّلُ مُضِرٍ بك ، وساعٍ عليك ، فإنّ ذوى التراكيب الخبيثة يبغضون لشدة الحسد كلَّ مَن أحسن إليهم إذا رأوْه فى أعلى مِن أحوالهم .

وعامِلْ كلَّ أحد فى الإنس أحسن معاملة ، وأضمرْ السلوَّ عنه إنْ فات ببعض الآفات التى تأتى مع مرور الأيام والليالى ، تَعِشْ سالماً مستريحا .

لا تنصحْ على شرط القبول ، ولا تشفَعْ على شرط الإجابة ، ولا تهبْ على شرط الإثابة ، لكن على سبيل استعمال الفضل ، وتأدية ما عليك من النصيحة ، والشفاعة ، وبذل المعروف .

حدُّ **الصداقة** الذى يدور على طرفى محدوده هو : أن يكون المرء يسوءه ما يسوء الآخر ، ويسرّه ما يسرّه ،

فما سفل عن هذا فليس صديقا ، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق ، وقد يكون المرءُ صديقاً لمن ليس صديقه . وأما الذى يدخل فى باب الإضافة فهو المصادق ، فهذا يقتضى فعلا من فاعلين ، إذ قد يحبُّ الإنسان مَن يُبْغضه ، وأكثر ذلك فى الآباء مع الأبناء ، وفى الأخوة مع إخْوتهم ، وبين الأزواج ، وفيمن صارت محبَّته عشقا ، وليس كلُّ صديق ناصحاً ، لكن كلُّ ناصحٍ صديقٌ فيما نصح فيه .

وحدُّ **النصيحة** هو : أنْ يسوء المرءُ ما ضرّ الآخر ، ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه ، وأنْ يسرّه ما نفعه ، سرَّ الآخرَ أو أساءه ، فهذا شرط فى النصيحة زائد على شرط الصداقة .

وأقصى غايات الصداقة التى لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك ، وآثرك على

مَن سواك | ولولا أنى شاهدت مظفَّراً ومباركا(٧) صاحبى بلنسية لقدَّرْتُ أنّ هذا الخلق معدوم فى زماننا ، ولكنى ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتِّى الأحوالِ الموجبة للفرقة غيرهما .

ليس شىءٌ من الفضائل أشبه بالرذائل من

(٧) مبارك ومظفر : اثنان من الصقالبة ، من موالى العامريين ، توليا فى بلنسية وكالة الساقية (أى إدارة شئون الرى) ، وجباية الضرائب ، وكان عبد الرحمن بن ياسر واليا على المدينة ، فلما سقطت الحجابة والخلافة ، وقامت على أنقاضها دول الطوائف ، نادى هذان الصقلبيان بنفسيهما أميرين على بلنسية بمساعدة أهلها ، عام٤٠١هـ = ١٠١٠م .

وقد جمعت بينهما صداقة حميمة ، يصفها ابن بسام ، نقلا عن ابن حيان المؤرخ : « ثم بلغ من سياسة هذين العبدين الفدمين ، مبارك ومظفر ، فى مدة إمارتهما إلى أن تقارضا من صحة الألفة فيها طول حياتهما ، بما فاتا فى معناهما أشقاء الأخوة ، وعشاق الأحبة : فنزلا يومئذ معا فى سلطانهما قصر الإمارة مختلطين ، يجمعهما فى أكثر أوقاتهما مائدة واحدة ، ولا يتميز أحدهما عن الآخر فى عظيم ما يستعملانه ، من كسوة وحلية وفراش ومركوب وآلة ، ولا ينفردان إلا فى الحرم خاصة ، على أن جماعة حرمهما كن مختلطات فى منازل القصر » .

ويمكن الرجوع إلى تفصيلات حياتهما فى :

- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ونشره ليفى بروفنسال بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص ٢٢٢ .
- ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٣ ، م ١ ، ص ١٥ وما بعدها .

الاستكثار من الإخوان والأصدقاء ، فإنّ ذلك فضيلة تامة متركِّبة ، لأنهم لا يُكتسبون إلاّ بالحلم والجود ، والصبر والوفاء والاستضلاع[٨] ، والمشاركة والعفة وحسن الدفاع ، وتعليم العلم ، وبكل حالة محمودة. ولسنا نعنى الشاكرية[٩] والأتباع أيّام الحرمة ، فأولئك لصوص الإخوان ، وخَبَث الأصدقاء ، والذين يُظَنُّ أنهم أولياء وليسوا كذلك ، ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا. ولا نعنى أيضا المصادقين لبعض الأطماع ، ولا المتنادمين على الخمر ، والمجتمعين على المعاصى والقبائح ، والمتألفين على النيل من أعراض الناس ، والأخذ فى الفضول ، وما لا فائدة فيه ، فليس هؤلاء أصدقاء ، ودليل ذلك أن بعضهم ينال من بعض ، وينحرف عنه ، عند فَقْد تلك الرذائل التى

---

(٨) الاستضلاع : الامتلاء.

(٩) الشاكرية : الأجراء والمستخدمون.

جمعتهم ، وإنما نعنى إخوان الصفاء لغير معنى إلاّ لله عزّ وجلّ ، وإما للتناصر على بعض الفضائل الجدية ، وإمّا لنفس المحبة المجرّدة فقط .

ولكن ، إذا أحصيْتَ عيوب الاستكثار منهم ، وصعوبة الحال فى إرضائهم ، والغرر[١٠] فى مشاركتهم ، وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم ، فإنْ غَدَرْتَ بهم ، أو أسلمتهم ، لُؤْمْتَ وذُممتَ ، وإنْ وفَّيْتَ أضْررتَ بنفسك ، وربما هَلِكْت ، وهذا الذى لا يرضى الفاضل بسواه إذا تنشَّبَ[١١] فى الصداقة ، وإذا تفكَّرتَ فى الهم بما يعرض لهم وفيهم ، من موت أو فراق أو غدر مَن يغدر منهم ، كادَ السرور بهم لا يفى بالحزن الممض[١٢] من أجلهم .

---

(١٠) الغرر : الخطر ، والتعريض للتهلكة .
(١١) تنشّب : تعلّق .
(١٢) الممض : المؤلم ، الموجع .

وليس فى الرذائل أشبه بالفضائل من **محبّة المدح** ، ودليل ذلك أنه فى الوجه سُخْفٌ ممن يرضى به ، وقد جاء فى الأثر فى المدّاحين ما جاء ، إلاّ أنه قد يُنتَفع به فى الإقصار عن الشرّ ، والتزيُّد من الخير ، وفى أنْ يرغب فى ذلك الخُلُق الممدوح مَن سمعه .

ولقد صحّ عندى أن بعض السائسين للدنيا لقى رجلاً من أهل الأذى للناس ، وقد قُلِّدَ بعض الأعمال الخبيثة ، فقابله بالثناء عليه ، وبأنه قد سمع شُكْرَه مستفيضا ، ووَصْفَهُ بالجميل والرفق منتشرا ، فكان ذلك سبباً إلى إقصار ذلك الفاسق عن كثير من شرّه .

بعض أنواع **النصيحة** يَشْكُلُ تمييزه من النميمة ، لأنّ من سمع إنسانا يذمّ آخر ظالماً له ، أو يكيده ظالماً له ، فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد ، كان الكاتم لذلك ظالماً مذموما . ثم إن أعلمه بذلك على وجهه كان

ربّما قد وَلَّدَ على الذامّ والكائد ما لم يبلغه استحقاقه بعدُ من الأذى ، فيكون ظالماً له ، وليس من الحق أنْ يقتصّ من الظالم بأكثر من قَدْرِ ظلمه ، فالتخلُّص من هذا الباب صعب إلاّ على ذوى العقول . والرأى للعاقل فى مثل هذا أنْ يحفظ المقول فيه من القائل فقط ، دون أن يبلِّغه ما قال ، لئلا يقع فى الاسترسال زائد فيهلك .

وأمّا فى **الكيد** فالواجب أن يحفظه من الوجه الذى يُكاد منه ، بألطف ما يقدر فى الكتمان على الكائد ، وأبلغ ما يقدر فى تحفيظ (١٣) المكيد ، ولا يزد على هذا شيئاً .

وأما **النميمة** فهى التبليغ لما سمع ، مما لا ضرر فيه على المبلّغ إليه ، وبالله التوفيق .

النصيحة مرتان : فالأولى فرضٌ وديانة ، والثانية

---

(١٣) تحفيظ : تقييد .

تنبيهٌ وتذكير ، وأما الثالثة فتوبيخٌ وتقريع ، وليس وراء ذلك إلاّ التركُّل واللطام[١٤] ، وربّما أرشدُ من ذلك من البغي والأذى ، اللهم إلاّ فى معانى الديانة ، فواجب على المرء تَرْدَادُ النصح فيها ، رَضِيَ المنصوحُ أو سخط ، تأذَّى الناصح بذلك أو لم يتأذّ .

وإذا نصحت فانصح سرًّا لا جهرا ، وبتعريض لا تصريح ، إلاَّ أنْ لا يفهم المنصوح تعريضك فلابدّ من التصريح . ولا تنصح على شَرْط القبول منك . فإن تعدّيتَ هذه الوجوه فأنت ظالمٌ لا ناصح ، وطالب طاعة ومُلْكٍ لا مؤدِّى حق أمانة وأخوّة ، وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة ، لكن حكم الأمير مع رعيته ، والسيّد مع عبيده .

لا تكلف صديقك إلاَّ مثل ما تبذل له من

---

(١٤) التركل واللطام : التركل الرفس بالرجل ، واللطام الصفع باليد على الوجه .

نفسك ، فإنْ طلبتَ أكثر فأنت ظالم .

ولا تكسبْ إلاّ على شرْط الفقد .

ولا تتولَّ إلاّ على شرط العزل ، وإلاَّ فأنت مضرٌّ بنفسك ، خبيث السيرة .

مسامحةُ أهلِ الاستئثار والاستغنام ، والتغافل لهم ، ليس مروءةً ولا فضيلة ، بل هو مهانةٌ وضعف وتضرية[(١٥)] لهم على التمادى على ذلك الخلق المذموم ، وتغبيطٌ[(١٦)] لهم به ، وعونٌ لهم على ذلك الفعل السوء ، وإنما تكون المسامحة مروءة لأهل الإنصاف المبادرين إلى الإنصاف والإيثار ، فهؤلاء فرض على أهل الفضل أنْ يعاملوهم بمثل ذلك ، لاسيما إن كانت حاجتهم أمسّ ، وضرورتهم أشدّ .

---

(١٥) تضرية : ضرى بالشيء ، إذا لزمه ، وأولع به ، أو اعتاده واجترأ عليه .

(١٦) تغبيط : تحبيب وتحسين .

فإنْ قال قائل : فإذا كان كلامُك هذا موجباً لإسقاط المسامحة ، والتغافل للأخوان ، فيه استوى الصديق والعدو والأجنبي فى المعاملة ، فهذا فساد ظاهر .

فنقول ، وبالله التوفيق ، كلاماً لا [١٧] يحض إلاّ على المسامحة ، والتغافل والإيثار ليس لأهل التغنُّم [١٨] ، لكن للصديق حقا ، فإن أردت معرفة وجه العمل فى هذا ، والوقوف على نَهج الحق ، فإنّ القصة التى توجب الإثرة من المرء على نفسه صديقَه ، ينبغى لكل واحد من الصديقين أن يتأمَّل ذلك الأمر ، فأيُّهما كان أمسَّ حاجة فيه ، وأظهر ضرورة لديه ،

---

(١٧) لفظ « لا » ساقط فى نسخة المحمصانى ، وأراه خطأ مطبعيا ، لأن المعنى لا يستقيم بدونه ، وموجود فى المطبوعات الأخرى التى لا تنقل عن نسخته .

(١٨) أهل التغنم : الذين يحرصون على الشيء كما يحرصون على الغنيمة ، ويطلبونه بلا مشقة .

فحكم الصداقة والمروءة تقتضى للآخر ، وتوجب عليه أن يؤثر على نفسه فى ذلك ، فإنْ لم يفعل فهو متغنِّمٌ مُسْتَكْثِرٌ ، لا ينبغى أن يُسامَح البتة ، إذ ليس صديقاً ولا أخاً ، فأمّا إذا استوت حاجتهما واتفقت ضرورتهما فحقُّ الصداقة ها هنا أن يسارع كل واحد منهما إلى الإثرة على نفسه ، فإن فعلا ذلك فهما صديقان ، وإن بَدَرَ أحدهما ولم يبادر الآخر إليه ، فإن كانت عادته هذه فليس صديقا ، ولا ينبغى أن يعامل معاملة الصداقة ، وإن كان قد يبادر هو أيضا إلى مثل ذلك فى قصة أخرى فهما صديقان .

من أردْتَ قضاء حاجته بعد أن سألك إيّاها ، أو أردت ابتداءه بقضائها ، فلا تعمل له إلاّ ما يريد هو ، لا ما تريد أنت ، وإلا فأمسك ، فإنْ تعدّيتَ هذا كنت مسيئاً لا محسنا ، ومستحقاً للّوم منه ومن غيره لا

للشكر ، ومقتضيا للعداوة لا للصداقة .

لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه ، ولا ينتفع بمعرفته ، فهذا فعل الأرذال ، ولا تكتمه ما يستضرّ بجهله ، فهذا فعل أهل الشرّ ، ولا يسرّك أنْ تُمْدَحَ بما ليس فيك ، بل ليعظمْ غمُّك بذلك ، لأنّه نَقْصُك ينبِّهُ الناس عليه ، ويسمعهم إيّاه ، وسخريّة منك ، وهزوٌ بك ، ولا يرضى بهذا إلاّ أحمقٌ ضعيف العقل .

ولا تأسَ إنْ ذُمِمْتَ بما ليس فيك ، بل افرح به ، فإنّه فَضْلُك يُنبِّهُ الناسُ عليه ، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح ، وسواء مُدِحْتَ به أو لم تُمْدَح ، واحزنْ إذا كان فيك ما تستحق به الذم ، وسواءٌ ذُمِمْتَ به أو لم تذم .

مَن سمع قائلا يقول فى امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا ، لا سيّما إذا كان القائل عيّابة ،

وقّاعاً فى الناس ، سليط اللسان ، أو دَافِعُ معرَّةٍ عن نفسه ، يريد أن يكثُر أمثالُه فى الناس ، وهذا كثير موجود .

وبالجملة فلا يحدِّث الإنسان إلاَّ بالحق ، وقوْلُ هذا القائل لا يُدرى أحقٌّ هو أم باطل ، إلاّ أنّه فى الديانة عظيم . فإنْ سَمِعَ القول مستفيضاً من جماعة ، وعلم أن أصل ذلك القول شائع ، وليس راجعاً إلى قول إنسان واحد ، أو اطلع على حقيقته إلاّ أنّه لا يقدر أن يوقف صديقه على ما وقف عليه هو ، فليخبره بذلك بيْنه وبينه فى رفق ، وليقلْ له : النساء كثير ، أو حصّن منزلك ، وثقِّف أهلك ، أو اجتنب أمراً كذا ، وتحفَّظْ من وجهٍ كذا ، فإنْ قَبِلَ المنصوح وتحرّز فحظَّ نفسه أصاب ، وإن رآه لا يتحفَّظ ولا يبالى أَمسك ، ولم يعاوده بكلمة ، وتمادى على صداقته إيّاه ، فليس فى

أنْ لا يصدّقه فى قوله ما يوجب قطيعته ، فإنْ اطلع على حقيقته ، وقدر أن يوقف صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة ، فَفَرْضٌ عليه أن يخبره بذلك ، وأنْ يوقفه على الجليّة ، فإنْ غيَّر فذلك ، وإن رآه لا يُغَيِّر اجتنب صحبته ، فإنه رَذْلٌ لا خير فيه ولا نقيّة (١٩) .

ودخولُ رجلٍ متَستِّرٍ فى منزل المرء دليلُ سوء لا يحتاج إلى غيره ، ودخول المرأة فى منزل رجل على سبيل التستُّر مثل ذلك أيضا . وطَلَبُ دليلٍ أكثر من هذين سُخْفٌ ، وواجبٌ أن يجتنب مثل هذه المرأة ، وفراقها على كل حال ، ومُمْسِكُها لا يبعد عن الدياثة (٢٠) .

الناس فى أخلاقهم على سبعة مراتب :

فطائفةٌ تمدح فى الوجه ، وتذمّ فى المغيب ، وهذه

---

(١٩) النقية : الخيار .

(٢٠) الدياثة : الديوث من الرجال القوّاد على أهله ، أو الذى لا يغار عليهم ولا يخجل .

صفة أهل النفاق من العيّابين ، وهذا خُلُقٌ فاشٍ فى الناس ، غالبٌ عليهم .

وطائفة تذمّ فى المشهد والمغيب ، وهذه صفة أهل السلاطة[٢١] والوقاحة من العيّابين .

وطائفة تمدح فى الوجه والغيب ، وهذه صفة أهل الملق والطمع .

وطائفة تذم فى المشهد ، وتمدح فى المغيب ، وهذه صفة أهل السخف والنواكة[٢٢] .

وأمّا أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم فى المشاهدة ، ويثنون بالخير فى المغيب ، أو يمسكون عن الذم .

وأمّا العيّابون البرآء من النفاق والقحة[٢٣]

---

(٢١) السلاطة : الرجل السليط الطويل اللسان ، الحاد الشديد .

(٢٢) النواكة : الحماقة .

(٢٣) القحة : اللؤم .

فيمسكون فى المشهد ، ويذمون فى المغيب .

وأمّا أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم فى المشهد والمغيب .

ومِن كلٍّ مِن أهل هذه الصفات قد شاهدناه وبلوناه .

إذا نصحتَ فى الخلاء ، وبكلام ليّن ، ولا تسند سبّ مَن تُحدّثه إلى غيرك فتكون نمّاما ، فإن خَشَّنْتَ كلامك فى النصيحة فذلك إغراء وتنفير ، وقد قال الله تعالى : « فقولا له قولاً لينا » (٢٤) . وقال رسول الله ﷺ : « لا تُنَفِّروا » . وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم ، ولعلك مخطئٌ فى وجه نصحك ، فتكون مطالبا بقبول خطئك وبترك الصواب .

---

(٢٤) سورة طه ، الآية ٤٤ .

وتشير الآية إلى سفارة قام بها موسى وأخوه هارون إلى فرعون مصر ليتحدثا باسم شعب اسرائيل .

لكل شىء فائدة ، ولقد انتفعتُ بمحك أهل الجهل منفعةً عظيمة ، وهى أنّه توقّد طبعى ، واحتدم خاطرى ، وحمى فكرى ، وتهيّج نشاطى ، فكان ذلك سببا إلى تواليف لى ، عظيمة المنفعة ، ولولا استثارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التواليف (٢٥) .

\لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه ، فما رأينا هذين العملين إلاّ سببا للقطيعة ، وإن ظنّ أهل الجهل أنّ فيهما تأكيدا للصلة فليس كذلك ، لأن هذين العقدين داعيان كلّ واحد إلى طلب حظ نفسه ، والمؤثرون على أنفسهم قليل جدا ، فإذا اجتمع طلب كلِّ امرىءٍ حظ نفسه وقعتْ المنازعة ، ومع وقوعها فساد المروءة ، وأسلمُ المصاهرة مغبّةً مصاهرة الأهلين بعضهم بعضا ،

(٢٥) يشير بهذه الفقرة ، دون أدنى شك ، إلى مؤلفاته العظيمة فى مجال الفقه والتشريع ، وجاءت وليدة الجدل الصاخب ، والحوار العنيف ، مع خصومه ومعارضيه .

لأنّ القرابة تقتضى العدل وإنْ كرهوه ، لأنّهم مضمرون إلى ما لا انفكاك لهم منه ، من الاجتماع فى النسب الذى توجب الطبيعة لكل أحد الذبّ[٢٦] عنه ، والحماية له .

(٢٦) الذب : الدفاع .

٦

فصل فى أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفى أنواعها :

المحبة كلها جنس واحد. ورسمها أنها الرغبة فى المحبوب ، وكراهة منافرته ، والرغبة فى المقارضة منه بالمحبة ، وإنّما قدّر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها ، وإنمّا اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها ، وضعفها أو انحسامها ، فتكون المحبّة لله عزّ وجلّ وفيه ، وللاتفاق على بعض المطالب ، وللأب والابن ، والقرابة والصديق ، وللسلطان ، ولذات الفراش ، وللمحسن ،

وللمأمول ، وللمعشوق . فهذا كله جنس واحد
اختلفت أنواعه ، كما وصفتُ لك ، على قَدْر الطمع
فيما ينال من المحبوب ، فلذلك اختلفتْ وجوه المحبة .

وقد رأينا من مات أسفاً على ولده ، كما يموت
العاشق أسفا على معشوقه ، وبلغنا عمن شهق من
خوف الله تعالى ومحبته فمات .

ونجد المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه ، كما
يغار على ذات فراشه ، وكما يغار العاشق على
معشوقه . فأدنى أطماعِ المحبة ممن تحب الحظوةُ منه ،
والرفعة لديه ، والزُّلْفَة (١) عنده ، إذا لم تطمع فى
أكثر ، وهذه غاية أطماع المحبين لله عزّ وجلّ ، ثم يزيد
الطمع فى المجالسة ، ثم فى المحادثة والموازرة ، وهذه
أطماع المرء فى سلطانه ، وصديقه ، وذوى رحمه .

---

(١) الزلفة : القربة والمنزلة .

وأقصى أطماع المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء ، إذا رجا ذلك ، ولذلك تجد المحب المفرط المحبة فى ذات فراشه يرغب فى جماعها على هيآت شتى ، وفى أماكن مختلفة ، ليستكثر من الاتصال . ويدخل فى هذا الباب الملامسة بالجسد والتقبيل ، وقد يقع بعض هذا الطمع فى الأب فى ولده ، فيتعدّى إلى التقبيل والتعنيق .

وكل ما ذكرنا إنما هو على قدر الطمع ، فإذا انحسم الطمع عن شىء ما ، لبعض الأسباب الموجبة له ، مالت النفس إلى ما تطمع فيه .

ونجد المقر بالرؤية لله عزّ وجلّ شديد الحنين إليها ، عظيم النزوع نحوها ، لا يقنع بدرجة دونها لأنه يطمع فيها ، وتجد المنكر لها لا تحنّ نفسه إلى ذلك ، ولا يتمنّاه أصلا ، لأنه لا يطمع فيه ، وتجده يقتصر على الرضا

والحلول فى دار الكرامة فقط ، لأنه لا تطمع نفسه فى أكثر (٢) .

ونجد المستحلّ لنكاح القرائب لا يقنع منهنّ بما يقنع المحرِّم لذلك ، ولا تقف محبّته حيث تقف محبّة من لا يطمع فى ذلك ، فتجد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود ، لا يقف من محبتهما حيث تقف

---

(٢) اختلف علماء المسلمين حول رؤية الله تعالى . فأهل السنة يجيزونها ، وينكرها المعتزلة ، وآخرون قلة من فرق لا تنتسب إليهم ، واحتجوا بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » ، وهم يمثلون الطرف الأقصى المقابل للمجسمة ، ويرون أن رؤية الله ممكنة فى الدنيا والآخرة .

وقد حدد ابن حزم وجهة نظر أهل السنة فى كتابه « الفصل » ، ج ٣ ص ٢ ، وما بعدها ، فهو ينكر الرؤية المادية ، ولكنه على النقيض من المعتزلة يرى إمكان الرؤية الروحية . وإليك كلماته بنصها :

« وإنما قلنا إنه تعالى يرى فى الآخرة بقوة غير هذه القوة الموضوعة فى العين الآن ، لكن بقوة موهوبة من الله تعالى ، وقد سماها بعض القائلين بهذا القول الحاسة السادسة ، وبيان ذلك أننا نعلم الله عز وجل بقلوبنا علماً صحيحاً ، هذا ما لا شك فيه ، فيضع الله تعالى فى الأبصار قوة تشاهد بها الله ، وترى بها ، كالتى وضع فى الدنيا فى القلب ، وكالتى وضعها الله عزّ وجل فى أذن موسى ﷺ ، حتى شاهد الله وسمعه » .

ويرد على المعتزلة بأن الله نفى الإدراك ، وهو معنى زائد على النظر والرؤية ، وهو معنى الإحاطة ، فالإدراك منفى عن الله فى الدنيا والآخرة .

محبة المسلم ، بل نجدهما يتعشّقان الابنة وابنة الأخ ، كتعشّق المسلم فيمن يطمع فى مخالطته بالجماع . ولا نجد مسلما يبلغ ذلك فيهما ، ولو أنهما أجمل من الشمس ، وكان هو أعهر الناس وأغزلهم ، فإن وُجِدَ ذلك فى الندرة ، فلا تجده إلاّ من فاسد الدين ، قد زال عنه ذلك الرادع ، فانفسح له الأمل ، وانفتح له باب الطمع (٣) .

---

(٣) خضع الزواج من الأقارب فى الحضارات القديمة للعادات والتقاليد ، ولا دخل للغرائز نفسها فى شىء من هذا . فأباح العبرانيون والفينيقيون ، واليونان ، وقدماء الميديون ، والفرس ، وبعض عشائر العرب فى الجاهلية ، وفى مصر القديمة ، أن يتزوج الأب بابنته ، والأخ بأخته .

وكان المسيحيون الذين يقيمون فى فارس قديماً يسيرون على سنة الفرس ، وفتح لهم زرادشت الباب واسعاً فيما يتصل بالعلاقات الجنسية ، وكل ما أوصى به فى هذا المجال أن يتعفف الناس عن الأعمال المنافية للطبيعة ، ورغم أن الرهبان ، والمجامع المسكونية كانت تمنع نصاً زواج الآباء ببناتهم وحفيداتهم ، إلاّ أن الغلبة كانت للواقع والعادة ، فلم يستجب لها المسيحيون فى فارس .

وظل اليهود الربانيون حتى يومنا هذا يبيحون زواج المرء بعمته وخالته ، ولو أن زواج الأخ بأخته لأبيه ، وكان مباحاً فى شريعتهم من قبل ، بدأ يتلاشى واقعاً ، ويمنع اليهود القراءون الآن كل ألوان الزواج هذه .

ولا يُؤمَن مِن المسلم أن تفرط محبته لابنة عمه حتى تصير عشقا ، وحتى تتجاوز محبّته لها محبّته لابنته وابنة أخيه ، وإن كانتا أجمل منها ، لأنه يطمع من الوصول إلى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه .

ونجد النصرانى قد أمن ذلك من نفسه فى ابنة عمه أيضا ، لأنه لا يطمع منها فى ذلك ، ولا يأمن ذلك من نفسه فى أخته منَ الرضاعة ، لأنه طامعٌ بها فى شريعته .

أما الإسلام فقد رسم منذ البدء منهجاً محدداً ودقيقاً لهذه العلاقة ، فحرم الزواج بعدد من المحارم كان الزواج منهن مباحا فى العادات والشرائع السابقة عليه ، وجمع ذلك فى الآية ٢٣ ، من سورة النساء : « حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعمّاتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللائى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللائى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ما قد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيماً » .

● انظر : د . على عبد الواحد وافى : الأسرة والمجتمع ، ص ٢٩ وما بعدها ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

فَلَاحَ بهذا عياناً ما ذكرنا مِن أنّ المحبة كلها جنس واحد ، لكنّها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها ، وإلاّ فطبائع البشر كلهم واحدة ، إلاّ أن للعادة والاعتقاد الدينى تأثيراً ظاهرا .

ولسنا نقول إن الطمع له تأثير فى هذا الفن وحده ، لكنّا نقول : **إنّ الطمع سبب إلى كل همّ** ، حتى فى الأموال والأحوال ، فإننا نجد الإنسان يموت جاره ، وخاله ، وصديقه ، وابن عمته ، وعمه لأم ، وابن أخيه لأم ، وجدُّه أبو أمه ، وابن بنته ، فإذ لا مطمع له فى ماله ارتفع عنه الهمّ ، لفوْته عن يده ، وإنْ جلَّ خطره ، وعَظُم مقداره ، فلا سبيل إلى أن يمرّ الاهتمام لشيء منه بباله ، حتى إذا مات له عصبة على بُعْد ، أو مولى على بُعْد ، وحدث له الطمع فى ماله حدث له من الهم ، والأسف ، والغيظ ، والفكرة بفوْت اليسير منه

عن يده ، أمرٌ عظيم .

وهكذا فى الأحوال ، فنجد الإنسان من أهل الطبقة المتأخرة لا يهتم لإنفاد غيره أمور بلده دون أمره ، ولا لتقريب غيره وإبعاده ، حتى إذا حدث له مطمع فى هذه المرْتَبَة حدث له من الهم ، والفكرة ، والغيظ ، أمرٌ ربما قاده إلى تلف نفسه ، وتلف دنياه وأخراه .

فالطمع إذاً أصلٌ لكل ذلّ ، ولكل همّ ، وهو خلق سوء ذميم ، وضده نزاهة النفس ، وهذه صفة فاضلة ، مركّبة من النجدة والجود ، والعدل والفهم ، لأنّه رأى قلّةَ الفائدة فى استعمال ضدها فاستعملها ، وكانت فيه نجدة أنتجت له عزّة نفسه فتنزّه ، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته ، وكانت فيه طبيعة عدل حبّبت إليه القناعة وقلّة الطمع .

فإذن ، **نزاهة النفس** متركّبة من هذه الصفات ،

فالطمع الذى هو ضدها مترَكِّبٌ من الصفات المضادة لهذه الصفات الأربع ، وهى : الجبن ، والشحّ ، والجور ، والجهل . والرغبة طمعٌ مستوفىً متزايد مُستَعْمَل ، ولولا الطمع ما ذلَّ أحدٌ لأحد . **وأخبرنى أبوبكر بن أبى الفياض** قال : كتب **عثمان بن مُحامس**[٤] على باب داره **بإسْتِجّة**[٥] : يا عثمان لا تطمع ! .

---

(٤) عثمان بن محمد بن محامس ، أبو سعيد ، زاهد وصوفى ومتكلم ، من أستجه ، عالم بأخبار الدهور ، وتوفى عام ٣٥٦ هـ = ٩٦٦ م . وكان ابنه محمد من شعراء الخليفة الحكم الثانى . انظر :

● ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة ٩٠١ ، طبعة الدار المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

● الضبى : بغية الملتمس ، الترجمة ١١٩٣ ، طبعة مدريد .

● ابن حيان ، المقتبس ، ص ٦٢ و ١٦٠ ، القطعة التى نشرها الدكتور عبد الرحمن حجى .

(٥) إستجة Écija : مدينة قديمة ، تقع الآن فى محافظة إشبيلية ، وكانت قديماً مستعمرة رومانية ، ثم ازدهرت فى العصر الإسلامى . انظر :

● الحميرى : الروض المعطار ، القطعة التى نشرها منه ليفى بروفنسال بعنوان : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٤–١٥ ، القاهرة ١٩٣٧ .

● **فصول من هذا الباب :**

من امتُحِنَ بقرْب مَن يكره ، كمن امتحن ببعد مَن يحبّ ، ولا فرق .

إذا دعا المحب فى السلوّ فإجابته مضمونه ، ودعوته مجابة .

إقنع بمن عندك ، يقنع بك من عندك .

السعيد فى المحبة هو من ابتُلِىَ بمن يقدر أن يُلقى عليه قفله ، ولا تلحقه فى مواصلته تَبِعَةٌ من الله عزّ وجلّ ، ولا ملامة من الناس ، وصلاح ذلك أنْ يتوافقا فى المحبة ، وتحريره أن يكونا خاليين من الملل ، فإنّه خُلُق سوءٍ مبغّض ، وتمامُه نَوْمُ الأيام عنهما مدة انتفاع بعضهما ببعض ، وأنّى بذلك إلاّ فى الجنّة . وأمّا ضمانه بيقين فليس إلاّ فيها ، فهى دار القرار ، وإلاّ فلو

حصل ذلك كله فى الدنيا لم تؤمن الفجائع ، ولقطع العمر دون استيفاء اللذة .

إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة .

الغيرة خُلُقٌ فاضل متركِّب من النجدة والعدل ، لأنّ من عَدَل كرِه أن يتعدَّى إلى حُرْمة غيره ، وأن يتعدَّى غيره إلى حرمته ، ومن كانت النجدة طبعاً له حدثتْ فيه عِزَّة ، ومن العزّة تحدثُ الأَنَفَةُ من الاهتضام .

أخبرنى بعض من صحبناه فى الدهر عن نفسه أنّه ما عرف الغيرةَ قط حتى ابتِليَ بالمحبة فغار ، وكان هذا المخبر فاسدَ الطبع ، خبيثَ التركيب ، إلاّ أنه كان من أهل الفهم والجود .

دَرْجُ المحبة خمسة :

أولها **الاستحسان** ، وهو أن يتمثّل الناظرُ صورةَ

المنظور إليه حسنةً ، أو يستسحن أخلاقه ، وهذا يدخل في باب **التصادق** .

ثم **الإعجاب** به ، وهو رغبة الناظر فى المنظور إليه ، وفى قربه .

ثم **الأُلْفَة** ، وهى الوحشة إليه إذا غاب .

ثم **الكَلَفُ** ، وهو غَلَبة شَغْل البال به ، وهذا النوع يسمى فى باب الغزل بالعشق .

ثم **الشَّغَف** ، وهو امتناع النوم ، والأكل ، والشرب ، إلاّ اليسير من ذلك ، وربّما أدى ذلك إلى المرض ، أو إلى التوسوُس ، أو إلى الموت ، وليس وراء هذا منزلة فى تناهى المحبة أصلا .

● **فصل** :

كنّا نظن أن العشق فى ذوات الحركة والحدة من

النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك ، وهو فى
الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون
بَلَهاً .

٧

فصل فى أنواع صباحة الصور

وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها فقلت :

الحلاوة رقَّة المحاسن ، ولُطْف الحركات ، وخِفَّة الإشارات ، وقبول النفس لأعراض الصور ، وإنْ لم تكن ثَمَّ صفات ظاهرة .

القوام : جمـال كل صفة على حدتها ، وربّ جميل الصفات ، على انفراد كل صفة منها ، بارد الطلعة غير مليح ، ولا حسن ، ولا رائع ، ولا حلو .

الروعة : بهاء الأعضاء الظاهرة مع جمـال فيها ،

وهى أيضا الفراهة[١] والعتق[٢] .

الحُسْنُ : هو شىء ليس له فى اللغة اسم يعبر به عنه ، ولكنه محسوس فى النفوس باتفاق كل من رآه ، وهو بُرْدٌ مكسوّ على الوجه ، وإشراقٌ يستميل القلوب نحوه ، فتجتمع الآراء على استحسانه ، وإن لم تكن هناك صفات جميلة ، فكل من رآه راقه ، واستحسنه ، وقبله ، حتّى إذا تأمّلتَ الصفات أفرادا لم تر طائلا ، وكأنه شىء فى نفس المرئى يجده نفس الرائى ، وهذا أجلّ مراتب الصباحة . ثم تختلف الأهواء بعد هذا ، فمن مفضل للروعة ، ومن مفضل للحلاوة ، وما وجدنا أحدًا قط يفضل القوام المنفرد .

الملاحة : اجتماع شىء فشىء مما ذكرنا .

---

(١) الفراهة : الملاحة والحسن ، أو المهارة والحذق .

(٢) العتق : النجابة .

٨

فصل فيما يتعامل الناس به وفى الأخلاق

التلوُّنُ المذموم هو التنقُّل من زيٍّ مُتَكَلَّف لا معنى له ، إلى زيٍّ آخر مثله فى التكلّف ، وفى أنه لا معنى له ، ومن حال لا معنى لها إلى حال لا معنى لها بلا سبب يوجب ذلك .

وأمّا من استعمل من الزى ما أمكنه ، مما به إليه حاجة ، وتَرَك التزيُّد مما لا يحتاج إليه ، فهذا عَيْنٌ من عيون العقل والحكمة كبير .

وقد كان رسول الله ﷺ وهو القدوة فى كل خير ،

والذى أثنى الله تعالى على خلقه ، والذى جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها ، وأبعده عن كل نقص ، يعود المريضَ مع أصحابه راجلا ، فى أقصى المدينة ، بلا خُفٍّ ، ولا نعل ، ولا قَلَنْسُوَة [١] ، ولا عمامة ، ويلبس الشعرَ إذا حضره ، وقد يلبس الوشْىَ [٢] من الحبرات [٣] إذا حضره ، ولا يتكلف مالا يحتاج إليه ، ولا يترك ما يحتاج إليه ، ويستغنى بما وجد عما لا يجد ، ومرة يمشى راجلاً حافياً ، ومرة يلبس الخفَّ ، ويركب البغلة الرائعة الشهباء ، ومرة يركب الفرسَ عُرْياً ، ومرة يركب الناقةَ ، ومرة يركب حماراً ، ويردف عليه بعضَ أصحابه ، ومرّة يأكل التمرَ دون خبز ، والخبزَ

---

(١) القلنسوة : لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال .

(٢) الوشى : نقش الثوب ، ويكون من كل لون .

(٣) الحبرات : جمع حبرة ، ثوب من قطن أو كتان ، مخطط ، كان يصنع باليمن ، وملاءة من الحريرة كانت ترتديها النساء بمصر حين خروجهن .

يابسا ، ومرة يأكل العَنَاق[٤] المشوِيَّةَ ، والبطيخ بالرطب والحلواء ، يأخذ القوتَ ، ويبذل الفضل ، ويترك ما لا يحتاج إليه ، ولا يتكلّف فوق مقدار الحاجة ، ولا يغضب لنفسه ، ولا يدع الغضبَ لربِّه عزّ وجلّ .

الثباتُ الذى هو **صحة العقد** ، والثبات الذى هو اللجاج[٥] ، مشتبهان اشتباهاً لا يفرق بينهما إلاّ عارف بكيفية الأخلاق . والفرق بينهما أنّ اللجاج هو ما كان على الباطل ، أو ما فعله الفاعلُ نصراً لما نَشِبَ[٦] فيه ، وقد لاح له فساده ، أو لم يَلُحْ له صوابه ولا فساده ، وهذا مذموم وضد الإنصاف .

وأما الثبات الذى هو صحة العقد فإنما يكون على

---

(٤) العناق : الأنثى من أولاد المعيز والغنم ، من حين الولادة إلى تمام حول .

(٥) اللجاج : الملازمة ، والإلحاح .

(٦) نشب : علق .

الحق ، أو على ما اعتقده المرء حقا ، ما لم يلح له باطله ، وهذا محمود وضده الاضطراب .

وإنّما يلام بعض هذين لأنّه ضيّع تَدبُّرَ ما ثبتَ عليه ، وتركَ البحثَ عما التزم ، أحقٌّ هو أم باطل .

حدُّ العقلِ استعمالُ الطاعات والفضائل ، وهذا الحد ينطوى فيه اجتناب المعاصى والرذائل ، وقد نص الله تعالى فى غير موْضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل ، قال الله تعالى حاكيا عن قوم : (وقالوا لو كُنَّا نسمَعُ أو نعقِلُ ما كنا فى أصحاب السعير) . ثم قال تعالى مُصدِّقاً لهم : (فاعترفوا بذنبهم فسُحْقاً لأصحاب السعير)[٧] .

وحدُّ الحُمْقِ استعمال المعاصى والرذائل . وأمّا لتعدّى ، وقَذْفُ الحجارة ، والتخليط فى القول ، فإنما

---

(٧) سورة الملك ، الآية رقم ١١ .

هو جنون ومِرَار[٨] هائج .

وأما الحمقُ فهو ضد العقل ، وهما ما بيَّنا آنفاً ، ولا واسطة بين العقل والحمق إلاّ السُّخْف .

وحدُّ السخْفِ هو العمل والقول بما لا يحتاج إليه فى دين ولا دنيا ، ولا حميد خُلُقٍ ، مما ليس معصية ولا طاعة ، ولا عوناً عليهما ، ولا فضيلة ولا رذيلة مؤذية ، ولكنه مِن هَذَر القوْل ، وفضول العمل ، فعلى قَدْر الاستكثار مِن هذين الأمرين ، أو التقلُّل منهما ، يستحق المرءُ اسمَ السخف ، وقد يَسْخَفُ المرء فى قصة ، ويَعْقِل فى أخرى ، ويحمُق فى ثالثة .

وضدُّ الجنون تمييزُ الأشياء ، ووجود القوة على التصرُّف فى المعارف والصناعات ، وهذا الذى يسميه الأوائلُ النطقَ ، ولا واسطة بينهما[٩] .

---

(٨) المرار : جمع مرة ، خلط من أخلاط البدن ، وهو المسمىّ : المزاج .

(٩) يشير ابن حزم هنا بكلمة « الأوائل » إلى فلاسفة الإغريق ، فيما يبدو لى ، ويعنى

وأمّا إحكام أمر الدنيا ، والتودُّد إلى الناس بما وافقهم ، وصَلُحتْ عليه حالُ المتودِّد من باطل أوغيره ، أو عيْب أو ما عداه ، والتحيُّل فى إنماء المال ، وبعْدُ الصوْت ، وتسبيب الجاه بكلّ ما أمكن من معصية ورذيلة فليس عقلا .

ولقد كان الذين صدقهم اللهُ فى أنّهم لا يعقلون ، وأخبرنا بأنّهم لا يعقلون ، سائسين لدنياهم ، مُثمرين لأموالهم ، مدارين لملوكهم ، حافظين لرياستهم ، لكن هذا الخُلق يسمَّى **الدهاء** ، وضده العقل والسلامة .

وأما إذا كان السعْيُ فيما ذكرنا بما فيه تصاوُن وأنفة

بكلمة « النطق » ما تعنيه الكلمة اليونانية وهى مزدوجة المعنى ، وتعنى عند الفلاسفة المسلمين ما تعنيه عند زملائهم من فلاسفة اليونان ، وهو : اللفظ بالقول ، وإدراك الكليات .

ومن المهم أن نشير إلى أن ابن حزم ، كما فى هذه الفقرة ، لا يسمح بحالة وسط بين رذيلة الجنون وفضيلة الفهم ، على نحو ما عليه الحال فى بقية الفضائل الأخرى ، والاتجاه نفسه نجده عند أرسطو أيضا .

فهو يسمَّى **الحزم**، وضده المنافى له التضييع .

وأما **الوقار** ووضع الكلام موضعه ، والتوسُّط فى تدبير المعيشة ، ومسايرة الناس بالمسالمة ، فهذه الأخلاق تُسمَّى **الرزانة** ، وهى ضد السخف .

الوفاء مركَّبٌ من العدل والجود والنجدة ، لأنّ الوفىّ رأى من الجور أن لا يقارض من وثق به ، أو من أحسن إليه ، فعدَلَ فى ذلك ، ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدمُ الوفاء من الحظ فجادَ فى ذلك ، ورأى أن يتجلّد لما يتوقّع من عاقبة الوفاء ، فشجُعَ فى ذلك .

أصول الفضائل كلها أربعة ، عنها تتركب كل فضيلة ، وهى : العدل ، والفهم ، والنجدة ، والجود .

أصول الرذائل كلها أربعة ، عنها تتركب كل رذيلة ، وهى أضداد التى ذكرنا ، وهى : الجور ،

والجهل ، والجبن ، والشح .

الأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود .

النزاهة فى النفس فضيلة تركّبت من النجدة والجود وكذلك الصبر .

الحُلْم نوعٌ مفرد من أنواع النجدة .

القناعة فضيلة مركَّبةٌ من الجود والعدل .

الحِرْصُ متولِّدٌ عن الطمع ، **والطمع** متولِّدٌ عن الحسد ، **والحسدُ متولِّد عن الرغبة** ، **والرغبة** متولِّدَةٌ عن الجور والشحِّ والجهل .

ويتولَّدُ من الحرص رذائل عظيمة ، منها : الذل ، والسرقة ، والغَصْبُ ، والزنا ، والقتل ، والعشق ، والهمُّ بالفقر . والمسئلةُ لما بأيدى الناس تتولّد فيما بين الحرص والطمع ، وإنما فرّقنا بين الحرص والطمع لأن **الحرص** هو إظهار ما استكن فى النفس من الطمع ،

والمداراة فضيلة متركبةٌ من الحلم والصبر.

الصدقُ مركَّبُ من العدل والنجدة ، ومن جاء إليك بباطل رجع من عندك بحق . وذلك أنّ من نقل إليك كَذِباً عن إنسانٍ حرَّكَ طبعَكَ فأجبته ، فرجع عنك بحق ، فتحفَّظْ مِن هذا ، ولا تُجبْ إلاَّ عن كلام صَحَّ عندك قائله .

لا شيء أقبح من الكذب ، وما ظنُّك بعيب يكون الكفر نوعاً من أنواعه ، فكلُّ كُفْرٍ كذبٌ ، فالكذبُ جنسٌ ، والكُفْر نوعٌ تحته . والكذب متولِّدٌ من الجور والجبن والجهل ، لأنّ الجُبْنَ يُولِّد مهانة النفس ، والكذَّابُ مَهينُ النفس ، بعيد عن عِزَّتها المحمودة (١٠) .

---

(١٠) عرض ابن حزم لموقفه الشخصى من الكذب فى كتابه « طوق الحمامة » ، وكتبه فى زهوة شبابه ، ولم يتراجع عنه وهو يحرر هذه الرسالة فى أخريات أيامه . قارن بين هذين الموقفين بالرجوع إلى :

رأيتُ الناسَ فى كلامهم الذى هو فَصْلٌ بينهم وبَين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساما ثلاثة :

أحدها مَن لا يبالى فيما أنفق كلامه ، فيتكلم بكل ما سبق إلى لسانه ، غير مُحَقِّق نَصْر حق ، ولا إنكار باطل ، وهذا هو الأغلب فى الناس .

والثانى أنْ يتكلم ناصراً لما وقع فى نفسه أنّه حق ، ودافعاً لِمَا توهَّمَ أنَّه باطل ، غير مُحَقِّقٍ لطلب الحقيقة ، لكن لجاجاً فيما التزم ، وهذا كثير ، وهو دون الأول .

والثالث واضعُ الكلامِ فى موضعه ، وهذا أعزُّ من الكبريت الأحمر[11] .

● طوق الحمامة ، ص ٨٥ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٨٠ .

● د . الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٧ .

(١١) سار الكيمائيون العرب فى العصر الوسيط على خطى أرسطو ، فهم يقسمون الكبريت إلى أنواع ثلاثة : أحمر وأبيض وأصفر ، والأول أندرها ، لأنه ، فيما يزعمون —

لقد طالَ هَمُّ مَن غَاظَه الحقُّ .

اثنان عَظُمَتْ راحتهما ، أحدهما فى غاية المدح ، والآخر فى غاية الذمِّ ، وهما : مُطَّرِحُ(١٢) الدنيا ، ومطَّرِحُ الحياء .

لو لم يكن من التزهيد فى الدنيا إلاّ أنّ كل إنسان فى العالم فإنّه كل ليلة إذا نام نسى كلَّ ما يشْفق عليه فى يقظته ، وكل ما يُشْفق منه ، وكل ما يشره(١٣) إليه ، فتجده فى تلك الحال لا يذكر ولدًا ، ولا أهلاً ، ولا جاهاً ، ولا خمولاً ، ولا ولاية ، ولا عُزْلةً ، ولا فقرا ، ولا غنى ، ولا مصيبة ، وكفى بهذا واعظا لمن عقل .

يوجد فى مناجم فى أرض بعيدة تقع عند مغرب الشمس ، قريبا من المحيط ، أو خلف التبت بوادى النمل ، ومن هنا كانت ندرته ، ومضرب المثل به .

(١٢) مطرح : تارك .

(١٣) يشره : يطمع .

مِن عجيب تدبير الله عزّ وجلّ للعالَم أنّ كلّ شيءٍ اشتدّتْ الحاجة إليه كان ذلك أَهْوَن له ، وتأمَّلْ ذلك فى الماء فما فوقه .

وكلُّ شيءٍ اشتدّ الغنى عنه ، كان ذلك أعزُّ له ، وتأمَّلْ فى الياقوت الأحمر فما دونه .

الناسُ فيما يعانونه كالماشى فى الفلاة (١٤) ، كلّما قطع أرضاً بدتْ له أرضون ، وكلَّما قَضَى المرءُ سبباً حدثت له أسباب .

صَدَقَ مَن قَال إنّ العاقل معذَّبٌ فى الدنيا ، وصدق من قال إنّه فيها مستريح . فأما تعذيبه فما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته ، وبما يحال بينه وبينه مِن إظهار الحق . وأمّا راحتُه فمن كلِّ ما يهتمّ به سائر الناس من فضول الدنيا .

---

(١٤) الفلاة : الأرض الواسعة المقفرة .

إيَّاك وموافقة الجليس السيئ ، ومساعدة أهل زمانك فيما يضرّك فى أخراك أو فى دنياك ، وإنْ قلَّ ، فإنك لا تستفيد بذلك إلاّ الندامة حيث لا ينفعك الندم ، ولن يحمدك من ساعدته بل يشمت بك ، وأقل ما فى ذلك ، وهو المضمون ، أنه لا يبالى بسوء عاقبتك وفساد مغبتك .

وإيَّاكَ ومخالفة الجليس ، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرّك فى دنياك ولا فى أُخراك ، وإنْ قلَّ ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة ، وربما أدَّى ذلك إلى المطالبة [١٥] والضرر العظيم ، دون منفعة أصلاً .

إن لم يكن بُدٌّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله عزّ وجلّ ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو

---

(١٥) المطالبة : المساءلة .

منافرة الحق ، فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب ربَّك ، ولا تنافر الحقّ .

الإتِّساءُ بالنبى ﷺ فى وعظ أهل الجهل والمعاصى والرذائل واجب ، فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار فقد أخطأ وتعدَّى طريقته ﷺ ، وصار فى أكثر الأمر مغرياً للموعوظ بالتمادى على أمره ، لجاجًا وحَرَدًا [١٦] ، ومغايظة للواعظ الجافى ، فيكون فى وعظه مسيئاً لا محسنا . ومَن وعظ بِبِشْرٍ وتَبَسُّمٍ ولين ، وكأنَّه مشيرٌ برأى ، ومخبر عن غير الموعوظ بما يستفتح من الموعوظ ، فذلك أبلغ وأنجع فى الموعظة . فإن لم يُتَقَبَّل فلينتقل إلى الموعظة بالتحشيم ، وفى الخلاء [١٧] ، فإن لم يُقْبَل ففى حضرة مَن يستحى مِنه الموعوظ ، فهذا أدب

(١٦) حرداً : غضباً وغيظاً .

(١٧) الخلاء : أى وحده ، فى مكان لا أحد به ولا شيء فيه .

الله فى أمره بالقول واللين .

وكان ﷺ لا يُواجِه بالموعظة ، لكن كان يقول : « ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا » . وقد أثنى عليه الصلاة والسلام على الرفْق ، وأمر بالتيسير ، ونهى عن التنفير ، وكان يتخوّل[١٨] بالموعظة خوف الملل ، وقال تعالى : (ولو كنت فَظًّا غليظ القلب لانفضُّوا مِن حولِك)[١٩] .

وأما الغلظة والشدة فإنما تجب فى حدٍّ من حدود الله تعالى ، فلا لين فى ذلك للقادر على إقَامة الحدِّ خاصة .

ومما يَنْجَعُ فى الوعظ أيضا الثناء بحضرة المسئ على مَن فعل خلاف فعله ، فهذا داعيةٌ إلى عمل الخير . وما أعلم لحبِّ المدح فضلا إلاّ هذا وحده ، وهو أن يقتدى

---

(١٨) يتخول : يتعهد ، ويترفق .

(١٩) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

به من يسمع الثناء ، **ولهذا يجب أنْ تؤرَّخ الفضائل والرذائل** ، لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ، ويرغب فى الحسَنَ المنقول عمن تقدّمه ، ويتعظ بما سلف .

تأمَّلْتُ كلَّ ما دون السماء ، وطالت فيه فكرتى ، فوجدتُ كلَّ شىءٍ فيه من حىٍّ وغير حىّ مِن طَبْعِهِ ، إنْ قَوِىَ ، أنْ يخلع عن غيره من الأنواع كيفياته ويُلْبِسه صفاته . فترى الفاضلَ يودُّ لو كان الناس فضلاء ، وترى الناقص يودُّ لو كان الناس نُقَصَاء ، وترى كلَّ مَن ذَكَرَ شيئا يَحُضُّ عليه يقول : وأنا أفعلُ أمراً كذا ، وكلُّ ذى مذهبٍ يودْ لو كان الناس موافقين له . وترى ذلك فى العناصر إذا قوى بعضها على بعض أحاله إلى نوعيته ، وترى ذلك فى تركيب الشجرِ ، وفى تَغَذِّى النبات والشجر بالماء ورطوبة الأرض ، وإحالتهما ذلك

إلى نوعيتهما ، فسبحان مخترع ذلك ومدبِّره ، لا إله إلاّ هو.

مِن عجيب قدرة الله تعالى كثرةُ الخَلْقِ ، ثم لا ترى أحدًا يُشبه آخر شبهاً لا يكون بينهما فيه فرق . وقد سألت مَن طال عمره وبلغ الثمانين عاما هل رأى الصُّوَر فى ما خلا مشبهةً لهذه شبهاً واحداً ، فقال لى : بل لكل صورة فَرْقُها . وهكذا كل ما فى العالم ، يَعْرِفُ ذلك مَن تدبَّر الآلات ، وجميع الأجسام المركَّبات ، وطال تكرُّرُ بصره عليها ، فإنّه حينئذ يميِّز ما بينها ، ويعرف بعضها من بعض بفروق فيها تعرفها النفس ، ولا يقدِر أحد يعبِّر عنها بلسانه ، فسبحان العزيز الحكيم الذى لا تتناهى مقدوراته .

مِن عجائب الدنيا قومٌ غلبتْ عليهم آمالٌ فاسدة ، لا يحصلون منها إلاّ على إتعاب النفس عاجلا ، ثُم الهمّ

والإثم آجلاً ، كمن يتمنىّ غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس ، وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها الضرر لغيره وإن كانت له فيها منفعة ، فإنّ تأميله ما يؤمِّل من ذلك لا يعجل له ذلك قبل وقته ، ولا يأتيه من ذلك بما ليس في علم الله تعالى تكوّنه ، فلو تمنىّ الخير والرخاء لتعجل الأجر والراحة والفضيلة ، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها ، فاعجبوا لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة .

٩

فصل فى مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة

مَن امتُحِنَ بالعُجْبِ فليفكرِّ فى عيوبه ، فإن أُعجِبَ بِفضائله فليفتِّش ما فيه من الأخلاق الدنيئة ، فإن خَفِيَتْ عليه عيوبه جملة حتى يظن أنّه لا عيب فيه فليعلم أنّ مصيبته إلى الأبد ، وأنه أتمُّ الناسِ نقصاً ، وأعظمهم عيوباً ، وأضعفهم تمييزاً . وأوّل ذلك أنه ضعيف العقل ، جاهل ، ولا عيب أشد من هذين ، لانّ العاقل هو مَن ميَّز عيوبَ نفسه فغالبها ، وسعى فى قمعها ، والأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه ، إمّا

لقلة علمه وتمييزه ، وضعف فكرته ، وإمّا لأنّه يقدّر أن عيوبه خصالٌ ، وهذا أشدّ عيب فى الأرض ، وفى الناس كثير يفخر بالزنا واللياطة ، والسرقة والظلم ، فيعجب بتأتى هذه النحوس له ، وبقوته على هذه المخازى .

واعلم يقينا أنّه لا يسلم إنْسىٌّ من نَقْصٍ حاشا الأنبياء صلوات الله عليهم [١] .

فمن خفِيَتْ عليه عيوب نفسه فقد سقط ، وصار من السُّخْفِ والضعة ، والرذالة والخسة ، وضَعْفِ التمييز والعقل ، وقلّة الفهم ، بحيث لا يتخلّف عنه متخلِّف من الأرذال ، وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة ، فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه ، والاشتغال بذلك

---

(١) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى عصمة الأنبياء ، وهو مبدأ يتفق عليه أهل السنة ، والمعتزلة ، والخوارج ، والشيعة ، مع خلاف فى التفاصيل ، وقد أوضح ابن حزم فكرة العصمة ، ودافع عنها تفصيلاً فى كتابه : الفصل ، ج ٤ ص ٢ — ٣٢ .

عن الإعجاب بها ، وعن عيوب غيره التى لا تضره لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وما أدرى لسماع عيوب الناس خصلة إلاّ الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها ، ويسعى فى إزالة ما فيه منها ، بحول الله تعالى وقوته .

وأما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لا يسوغ أصلا ، والواجب اجتنابه إلاّ فى نصيحة من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب ، أو على سبيل تبكيت المعجب فقط فى وجهه لا خلف ظهره ، ثم يقول للمُعْجَب ارجع إلى نفسك ، فإذا ميَّزتَ عيوبها فقد داويت عُجْبَكَ ، ولا تمثِّلْ(٢) بين نفسك وبين من هو أكثر عيوباً منها ، فتستسهل الرذائل ، وتكون مقلِّداً لأهل الشر ، وقد ذُمَّ تقليد أهل الخير ، فكيف تقليد أهل الشر ، لكن مثِّلْ بين نفسك وبين من هو أفضل منك ،

---

(٢) تمثل : توازن أو تقارن .

فحينئذ يتلف عُجْبك ، وتُفيق من هذا الداء القبيحِ ، الذى يُولِّد عليك الاستخفاف بالناس ، وفيهم بلا شك من هو خيرٌ منك ، فإذا استخففتَ بهم بغير حقّ ، استخفُّوا بك بحقّ ، لأنّ الله تعالى يقول : (وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلها)[٣] ، فتولَّد على نفسك أن تكون أهلاً للاستخفاف بك ، بل على الحقيقة مع مقت الله عزّ وجلّ ، وطَمْس ما فيك من فضيلة .

فإنْ أُعجبْتَ بعقلك ففكِّرْ فى كلّ فكرة سوءٍ تحلُّ بخاطرك ، وفى أضاليل الأمانى الطائفة بك ، فإنّك تَعلَمُ نَقْصَ عقلك حينئذ .

وإنْ أُعجبتَ بآرائك فتفكَّرْ فى سقطاتك واحفظها ، ولا تنسها ، وفى كلّ رأىٍ قدَّرتَه صوابا ، فخرج بخلاف تقديرك ، وأصاب غيرك ، وأخطأت

---

(٣) سورة الشورى : الآية ٤٠ .

أنتَ ، فإنّك إنْ فعلتَ ذلك فأقلُّ أحوالكَ أن يُوازَن سقوط رأيك بصوابه ، فتخرج لا لكَ ولا عليك ، والأغلبُ أنّ خطأك أكثر من صوابك ، وهكذا كلّ أحدٍ من الناس بعد النبيين ، صلواتُ الله عليهم .

وإن أُعجبتَ بعملك فتفكّرْ فى معاصيك ، وفى تقصيرك ، وفى معاشك ووجوهه ، فوالله لتجدنَّ مِن ذلك ما يغلب على خيرك ، ويُعفِّى(٤) على حسناتك ، فليطل همُّكَ حينئذ ، وأَبْدِل من العجب تَنَقُّصاً لنفسك .

وإن أُعجبتَ بعلمك فاعلم أنّه لا خصلة لك فيه ، وأنّه موْهبة من الله مجرّدة ، وهبك إيّاها ربُّك تعالى ، فلا تقابلها بما يسخطه ، فلعلّه ينسيك ذلك بعلّة يمتحنك بها ، تُولِّد عليك نسيان ما علمت وحفظت .

---

(٤) يعفى : يزيل ويمحو .

ولقد أخبرنى **عبد الملك بن طريف**(٥) ، وهو من أهل العلم والذكاء ، واعتدال الأحوال ، وصحة البحث : أنّه كان ذا حظ من الحفظ عظيم ، لا يكاد يمر على سمعه شىء يحتاج إلى استعادته ، وأنّه ركب البحر فمرّ به فيه هوْلٌ شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ ، وأخلّ بقوة حفظه إخلالاً شديداً لم يعاوده ذلك الذكاء بعد .

وأنا أصابتنى علّةٌ فأفقتُ منها ، وقد ذهب ما كنتُ أحفظ إلاّ ما لا قدْر له ، فما عاودتُهُ إلاّ بعد أعوام .

واعلم أن كثيراً من أهل الحرص على العِلْم يجدّون فى القراءة ، والإكباب على الدروس والطلب ، ثم

---

(٥) يكنى أبا مروان ، ولد فى قرطبة ، وتتلمذ على ابن القوطية ، وكان حسن التصرف فى اللغة ، وأكمل كتاب أستاذه « الأفعال » ، وأصبح فيا بعد من أشهر الكتب دراسة فى الأندلس ، وتوفى قريبا من عام ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م ، انظر :

- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة ٧٦٤ ، طبعة الدار المصرية .
- الضبى : البغية ، الترجمة ١٥٦٥ ، طبعة مدريد .

لا يرزقون منه حظًّا ، فليعلمْ ذو العلم أنّه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه ، فصحّ أنّه موْهبة من الله تعالى ، فأىّ مكانٍ للعُجْب ها هنا ، ما هذا إلاّ موضع تواضعٍ وشُكْر لله تعالى ، واستزادة من نعمه ، واستعاذة من سَلْبِها .

ثُمَّ تفكَّرْ أيضا فى أنّ ما خفى عليك ، وجهلته من أنواع العلم ، ثم من أصناف علمك الذى تختص به ، فالذى أُعجبتَ بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من ذلك ، فاجعل مكان العجب استنقاصاً لنفسك ، واستقصاراً لها ، فهو أولى . وتفكَّرْ فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيراً ، فَلْتَهُنْ نفسُك عندك حينئذ ، وتفكَّرْ فى إخلالك بعلمك ، وأنك لا تعمل بما علمتَ منه ، فلعلمك عليك حجة حينئذ ، ولقد كان أسلمْ لك لو لم تكن عالما . واعلم أنّ الجاهل حيئنذ أعقل منك ، وأحسن

حالاً وأعْذر ، فليسقط عُجْبُك بالكلية .

ثُمَّ لعلَّ عِلْمَك الذى تَعْجَب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة ، التى لا كبير خصلة فيها كالشِّعْر وما جرى مجراه ، فانظرْ حينئذ إلى مَن علمه أجل مِن علمك فى مراتب الدنيا والآخرة ، فتهون نفسك عليك .

وإنْ أُعْجبتَ بشجاعتك فتفكَّرْ فيمن هو أشجع منك ، ثم انظر فى تلك النجدة التى منحك الله تعالى فِيمَ صَرَفْتَها ، فإنْ كنتَ صرفْتها فى معصية فأنت أحمق ، لأنّك بذلتَ نفسك فيما ليس ثمناً لها ، وإن كنت صرفتها فى طاعة فقد أفسدتّها بِعُجْبِكَ . ثم تفكَّرْ فى زوالها عنك بالشيخوخة ، وأنّك إنْ عشت فستصير من عدد العيال وكالصبى ضعفا .

على أنِّى ما رأيتُ العجب فى طائفة أقلّ منه فى أهل

الشجاعة ، فاستدللت بذلك على نزاهة أنفسهم ورفعتها وعلوِّها .

وإنْ أُعجبتُ بجاهك فى دنياك فتفكَّرْ فى مخالفيك ، وأندادك ، ونظرائك ، ولعلهم أخِسَّاء وضعفاء سقَّاط ، فاعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه ، ولعلَّهم ممن يُستحيا مِن التشبُّه بهم ، لفرط رذالتهم ، وخساستهم فى أنفسهم وأخلاقهم ومنابتهم ، فاستهنْ بكل منزلةٍ شاركك فيها مَن ذكرْتُ لك ، وإنْ كنتَ مالكَ الأرضِ كلّها ، ولا مخالف عليك ، وهذا بعيد جدًّا فى الإمكان ، فما نعلم أحداً مَلَكَ معمورَ الأرض كله ، على قلته وضيق ساحته ، بالإضافة إلى غامرها ، فكيف إذا أضيف إلى الفلك المحيط ، فتفكَّرْ فيما قال **ابن السمَّاك**(٦) **للرشيد** ، وقد دعا بحضرته بقدح فيه

(٦) ابن السماك : أبو العباس محمد بن صبيح ، زاهد الكوفة الشهير ، أخذ عن هشام . =

ماء ليشربه ، فقال له : فلو مُنِعْتَ هذه الشَّرْبَة بكم كنتَ ترضى أن تبتاعها ؟ ، فقال له الرشيد : بملكى كله ! . قال : فلو مُنِعْتَ خروجها منك ، بكم كنت ترضى أن تُفْتَدى من ذلك ؟ ، قال : بملكى كله ! . قال : يا أمير المؤمنين ، أتغتبط بملك لا يساوى بَوْلة ولا شَرْبة ماء ؟ ! ، وصدق ابن السمَّاك ، رحمه الله .

وإنْ كنتَ مَلِكَ المسلمين كلهم فاعلم أنَّ مَلِكَ السودان ، وهو رجل أسود رَذْل ، مكشوف العورة جاهل ، يملك أوسع من ملكك .

فإنْ قلتَ : أنا أخذتُه بحق ، فلعمرى ما أخذتَه

= بن عروة ، والأعمش ، وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره . وتوفى فى الكوفة عام ١٨٣هـ - ٧٩٩م ، ومن حكمه المشهورة : « خف الله كأنه لم تطعه أبدا ، وارجه كأنك لم تعصه لحظة » . انظر :

● ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ص ٢٩٦ ، طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩٩هـ .

● الشعرانى : طبقات الشافعية ، ج ١ ص ٥٢ ، القاهرة ١٣١٧هـ . وما يرويه ابن حزم هنا يوجد فى :

● ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٠ ، طبعة نودنبرج .

بحق ، إذ استعملت فيه رذيلة العُجْبِ ، وإذا لم تعدل فيه فاستَحْيِ من حالك ، فهى حال رذالة لا حالة يجب العجب فيها .

وإنْ أُعجبتَ بمالك فهذه أسْوء مراتب العُجْب ، فانظرْ فى كل ساقط خسيس هو أغنى منك ، فلا تغتبط بحالة يفوقك فيها مَن ذكرتُ .

وأعلم أَنَّ عُجْبك بالمال حمقٌ ، لأنه أحجار لا تنتفع بها إلاّ أن تخرجها عن ملكك بنفقتها فى وجهها فقط ، والمال أيضا غادٍ ورائحٌ ، وربما زال عنك ، ورأيته بعينه فى يد غيرك ، ولعل ذلك يكون فى يد عدوّك ، فالعجب بمثل هذا سخفٌ ، والثقة به غرور وضعف .

وإنْ أُعجبتَ بحسنك ففكر فيما يولّدًّ(٧) عليك

---

(٧) يولد : يستحدث .

لما نستحى نحن من إثباته ، وتستحى أنتَ منه إذا ذهب عنك بدخولك فى السن ، وفيما ذكرنا كفاية[٨] .

وإنْ أُعجبتَ بمدْح إخوانك لك ففكِّر فى ذمِّ أعدائك إيّاك ، فحينئذ ينجلى عنك العجب ، **فإن لم يكن لك عدوٌّ فلا خير فيك ، ولا منزلة أسقط مِن منزلةِ مَن لا عدوّ له** ، فليست إلاّ منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمةٌ يُحسد عليها ، عافانا الله .

فإنْ استحقرْتَ عيوبَك ففكِّر فيها لو ظهرتْ إلى الناس ، وتمثَّل إطلاعهم عليها ، فحينئذ تخجل وتعرف قدْر نقصك ، إنْ كانت لك مسكة من تمييز .

واعلمْ بأنك إنْ تعلّمتَ كيفية تركيب الطبائع ، وتولُّد الأخلاق ، من امتزاج عناصرها المحمولة فى النفس ، فستقف من ذلك وقوف يقين على أن

---

(٨) يشير إلى اللواط ، فيما يبدو لى .

فضائلك لا خصلة لك فيها ، وأنها مَنْحٌ مِن الله تعالى ، لو منحها غيرك لكان مثلك ، وأنَّك لو وُكِلْتَ إلى نفسك لعجزت وهلكت ، فاجعل بدل عجبك بها شكراً لواهبك إياها ، وإشفاقاً من زوالها ، فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض ، وبالفقر ، وبالخوف ، وبالغضب ، وبالهرم ، وارحم مَن مُنِعَ ما مُنِحْتَ ، ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصى على واهبها تعالى ، وبأن تجعل نفسك فيما وهبك خصلة أو حقًّا ، فتقدِّر أنك استغنيت عن عصمته ، فتهلك عاجلا وآجلا .

ولقد أصابتنى علّة شديدة ، ولَّدت علّى ربْواً فى الطحال شديداً ، فوّلَّد ذلك علىّ من الضجر وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمراً حاسبتُ نفسى فيه ، إذ أنكرتُ تبدُّل خلقى ، واشتدّ عُجْبى من مفارقى

لطبعى ، وصحّ عندى أن الطحّال موضع الفرح إذا فسد تولّد ضده(٩) .

وإنْ أُعجبتَ بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا ، لأنّ هذا الذى أُعجبت به لا فائدة له أصلاً فى دنيا ولا آخرة ، وانظر : هل يدفع عنك جَوْعة أو يستر لك عوْرة ، أو ينفعك فى آخرتك ، ثم انظر إلى من يساهمك فى نسبك ، وربّما فيما هو أعلى منه ، ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام ، ثم ولادة الخلفاء ، ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ، ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة ، ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الإسلام ، فتأمَّلْ غُبَّراتهم(١٠) وبقاياهم ،

---

(٩) لم يحدد العلم ، أو الطب ، وظيفة الطحال بصورة نهائية حتى اليوم ، وابن حزم ، طبقاً للسائد على أيّامه ، يجعله مصدرا لظواهر الفرح والحزن التى أشار إليها . وهذه الفقرة المتصلة بحياة ابن حزم ، يمكن ربطها باعترافات أخرى سوف يشير إليها فيما بعد ، وتفسر لنا مصدر حدته فى جدله ، وفى مؤلفاته ، واشتهر بها بين معاصريه .

(١٠) غبراتهم : بقاياهم .

ومَن يُدلى بمثل ما تُدْلى به من ذلك ، تجد أكثرهم أمثال الكلاب خساسة ، وتَلْفَهُم فى غاية السقوط والرذالة والتبدُّل ، والتحلى بالصفات المذمومة ، فلا تغتبطْ بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوقك .

ثُمَّ ، لعلّ الآبـاء الذين تفخر بهم كانـوا فُسَّاقاً ، وشربة خمور ، ولاطة[١١] ، ومتعبِّثين[١٢] ، ونوكى[١٣] ، أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظُلْماً وآثارا قبيحة ، تُبقى عارهم بذلك الأيام ، ويعظم إثمهم ، والندم عليها يوم الحساب ، فإن كان كذلك فاعلم أن الذى أعجبت به من ذلك داخل فى العيب والخزى والعار والشنار[١٤] ، لا فى الإعجاب .

---

(١١) لاطة : جمع لوطى .

(١٢) متعبثين : عابثين .

(١٣) نوكى : حمقى .

(١٤) الشنار : العيب .

فإن أُعجبت بولادة الفضلاء إيّاك فما أخلى يدك من فضلهم إنْ لم تكن أنت فاضلا ، وما أقلَّ غناهم عنك فى الدنيا والآخرة إن لم تكن محسنا ، والناس كُلّهم أولاد آدم الذى خلقه الله بيده ، وأسكنه جنته ، وأسجد له ملائكته ، ولكن ما أقلّ نفعه لهم ، وفيهم كل معيب ، وكل فاسق ، وكل كافر . وإذا فكّر العاقل فى أنّ فَضْل آبائه لا يقرّبه من ربه تعالى ، ولا يكسبه وجاهة لم يَحُزها هو بسعده أو بفضله فى نفسه ، ولا مالاً ، فأىّ معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه ، وهل المُعْجَب بذلك إلاّ كالمُعْجَبِ بمال جاره ، وبجاه غيره ، وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه ، كما تقول العامة فى أمثالها ، كالغبىّ يُزهى بذكاء أبيه ، فإن تضاعف بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك ، لأنّه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من

العجب ، هذا إن امتُدحْتَ بحقّ ، فكيف إن امتُدِحتَ بالكذب . وقد كان ابن نوح ، وأبو إبراهيم ، وأبو لهب عم النبى ﷺ ، أقرب الناس من أفضل خلْقِ الله تعالى ، وممن الشرف كله فى اتِّباعهم ، فما انتفعوا بذلك[١٥] .

وقد كان فيمن وُلِدَ لغير رشدة[١٦] مَن كان الغاية فى رياسة الدنيا ، كزياد وأبى مسلم[١٧] ، ومن كان

---

(١٥) وَهِمَ أسين بلاثيوس فى هذه الفقرة حين ترجم الكتاب إلى الإسبانية ، ربما لأنه قام بها فى شبابه ، ولم يعد إليها مقوماً حين أصبح علامة ، فقد عرف بالأعلام الواردة بها : قدم ترجمة موجزة لأبى لهب ، وظن أن « ابن نوح » كنيه لشخص ، وكتبه هكذا : Abennuh ، وفعل الشىء نفسه مع « أبو إبراهيم » ، وكتبه هكذا : Abuibrahim ، وظن أنهما من أقارب الرسول عليه السلام ، شأن أبى لهب ، واعتذر بأنه بحث فى كتب التراجم فلم يعثر لهما على خبر ، وغفل تماما أن المقصود هو « ابن نوح » الذى عصى والده فلم يركب معه السفينة ، ووردت قصته فى القرآن والتوراة ، وكان يجب أن يترجمه على هذا النحو Hijo de Noe ، وأن والد إبراهيم هو آذر ، ووردت قصته ، واسمه ، فى القرآن والتوراة أيضا ، وكان يجب أن يترجمه هكذا : Padre de Abraham

(١٦) رشدة : نكاح شرعى .

(١٧) زياد ابن أبيه : وينسب إلى أبى سفيان ، وجاء من علاقة غير شرعية بين أبى

نهاية فى الفضل على الحقيقة ، كبعض مَن نُجِلُّه عن ذكره فى مثل هذا الفصل ، ممن يتقرَّب إلى الله تعالى بحبه ، والاقتداء بحميد آثاره (١٨) .

وإنْ أُعجبتَ بقوة جسمك فتفكَّرْ فى أنَّ البغل والحمار والثور أقوى منك ، وأحمل للأثقال ، وإنْ أُعجبتَ بخفَّتِكَ فاعلم أنَّ الكلب والأرنب يفوقانك فى هذا الباب ، فمن العُجْبِ العُجاب إعجاب ناطق بخصلة يفوقها فيها غير الناطق .

سفيان وامرأة تدعى سمية ، ولم يعترف به أبوه فسمى زياد بن أبيه ، ولكن عدم شرعية المولد لم يحل بينه وبين أن يبلغ أعلى المناصب الحربية والسياسية فى خلافة معاوية ، وأظهر قدرة فائقة ، وشجاعة عالية ، فألحقه معاوية بنسبه ، واعترف بأخوته رسميا ، وتوفى زياد عام ٥٣ هـ = ٦٧٢ م .

● **أبو مسلم** : ويلقب بالخراسانى ، كان أيضا ثمرة علاقة غير شرعية ، ولعب دورا سياسياً وحربياً بارزًا فى إسقاط الخلافة الأموية ، وتولى عمالة خراسان ، فى خلافة المنصور العباسى ، وحاول أن يستقل بها ، فاستقدمه الخليفة إلى بغداد ، وقتل فيها عام ١٢٩ هـ = ٧٤٦ م .

(١٨) يشير إلى حالات أخرى لأبناء غير شرعيين بلغوا شأوا كبيراً فى حياتهم السياسية أو العلمية أو الدينية ، وكان وضعهم معروفاً للجميع على أيامه ، دون أن يمس ذلك مكانتهم .

واعلم أنَّ من قدَّر فى نفسه عجباً ، أو ظن لها على سائر الناس فضلاً ، فلينظرْ إلى صبره عندما يدهمه من هَمٍّ ، أو نكبة ، أو وجع ، أو دُمَّل ، أو مصيبة ، فإنْ رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم أنّ جميع أهلِ البلاءِ من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه ، على تأخُّر طبقتهم فى التمييز ، وإنْ رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشىء يَسْبق فيه على ما ذكرنا ، بل هو إمّا متأخِّر عنهم فى ذلك ، أو مساوٍ لهم ولا مزيد .

ثم لينظُرْ إلى سيرته ، وعدله أو جوره ، فيما خوّله (١٩) الله من نعمة أو مال ، أو خَوَلٍ (٢٠) ، أو أتباع ، أو صحة ، أو جاه ، فإنْ وجد نفسه مُقَصِّرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ، ووجدها حائفة (٢١)

---

(١٩) خوّله : أعطاه .

(٢٠) الخوَل : العبيد والإماء ، وغيرهم من الحاشية .

(٢١) حائفة : مائلة .

فى العدل ، فليعلمْ أنّ أهلَ العدلِ والشكرِ والسيرةِ الحسنةِ من المخوَّلين أكثَر مما هو فيه أفضلُ منه ، فإن رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيدٌ عن العُجْبِ ألبتة ، لعلمه بموازين الأشياء ، ومقادير الأخلاق ، والتزامه التوسُّط الذى هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين ، فإنْ أُعجِبَ فلم يعدل ، بل قد مال إلى جَنَبَةِ(٢٢) الإفراط المذمومةَ .

واعلم أنّ التعسُّف وسوءَ الملكة لمن خوَّلك اللهُ تعالى أمرَه ، من رقيق أو رعية ، يَدُلّان على خساسةِ النفس ، ودناءةِ الهمة ، وضعفِ العقل ، لأنّ العاقل الرفيع النفس ، العالىَ الهمة ، إنّما يَغْلب أكفاءه فى القوة ، ونظراءَه فى المنعة ، وأمّا الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط فى الطبع ، ورذالة فى النفس

---

(٢٢) جنبة : ناحية وجانب .

والخلق ، وعجزٌ ومهانة ، ومَن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بِقَتْل جُرَذ[٢٣] ، أو بقَتْل بُرْغُوث ، أو بِفَرْك قملة ، وحسبك بهذا ضَعَةً وخساسة .

واعلم أنّ رياضة الأنفس أصعبُ من رياضة الأُسُد ، لأنّ الأُسُدَ إذا سُجِنَتْ فى البيوت التى تتخذها لها الملوك أُمِن شرُّها ، والنفس وإنْ سُجِنَتْ لم يؤْمن شرُّها .

العُجْبُ أصل يتفرّع عنه التيه ، والزَّهْو ، والكِبْر ، والنخوة ، والتعالى ، وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة ، ولذلك صَعُبَ الفرق بينها على أكثر الناس .

فقد يكون العجب لفضيلة فى المُعْجَبِ ظاهرة ، فمِن مُعْجَبٌ بعلمه ، فيكفهرّ[٢٤] ويتعلّق على[٢٥]

---

(٢٣) الجرذ : الكبير من الفيران .

(٢٤) يكفهر : يعبس .

(٢٥) يتعلق : يتفاخر .

النّاس ، ومِن معجَب بعمله فيترفّع ويتعالى ، ومِن معجَب برأيه فيزهو على غيره ، ومن معجَب بنسبه فيتيه ، ومن معجَب بجاهه ، وعلوِّ حاله ، فيتكبّر ويتنخّى .

وأقلُّ مراتب العجب أن تراه يتوفّر عن الضحك فى مواضع الضحك ، وعن خفّة الحركات ، وعن الكلام ، إلاّ فيما لابدَّ منه من أمور دنياه . وعيْبُ هذا أقلُّ من عيب غيره ، ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات ، وتَرْك الفضول ، لكان ذلك فضلاً وموجباً لحمدهم . ولكن ، إنّما يفعلون ذلك احتقاراً للناس ، وإعجاباً بأنفسهم ، فحصل لهم بذلك استحقاق الذم ، « وإنما الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى » .

حتى إذا زاد الأمر ولم يكن هناك تمييز يحجب عن

تَوْفية العُجْبِ حقّه ، ولا عقل جيد ، حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس ، واحتقارهم بالكلام وفى المعاملة ، حتى إذا زاد ذلك ، وضَعُف التمييز والعقل ، ترقّى ذلك إلى الاستطالة على الناس بالأذى بالأيدى ، والتحكُّم ، والظلم ، والطغيان ، واقتضاء الطاعة لنفسه ، والخضوع لها إن أمكنه ذلك ، فإنْ لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه ، واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم .

وقد يكون العُجْبُ لغير معنى ، ولغير فضيلة فى المُعْجَب ، وهذا من عجيب ما يقع فى هذا الباب ، وهو شىءٌ يسمّيه عامتنا التَّمَتْرُك[26] ، وكثيرا ما نراه فى

---

(٢٦) تمترك : الكلمة من عامية أهل الأندلس ، طبقاً لإشارة ابن حزم نفسه ، ولا صلة لها بالرومانثية المستخدمة بين المستعربين فى الأندلس ، وطوائف من المسلمين ، ولا باللغة البربرية التى حملها البربر معهم إلى الأندلس ثم تلاشت . ويرى خوليان ريبيرا من كبار المستشرقين الإسبان (١٨٥٨– ١٩٣٤) أن مسلمى الأندلس فى عاميتهم العربية كانوا يميلون إلى أن يشتقوا أفعالاً رباعية من أسماء ذات أصول ثلاثية ، يضيفون إليها حرف الميم فى البداية ، =

النساء ، وفيمن عقله قريبٌ من عقولهن من الرجال ، وهو عُجْبُ مَن ليس فيه خصلة أصلاً ، لا علم ولا شجاعة ، ولا علوّ حالٍ ، ولا نسب رفيع ، ولا مال يطغيه .

وهو يعلم مع ذلك أنّه صفرٌ من ذلك كلّه ، لأنّ هذه الأمور لا يغلط فيها من يقذف بالحجارة ، وإنّما يغلط فيها من له أدنى حظٍّ منها ، فربُّما يتوهّم إنْ كان ضعيف العقل أنّه قد بلغ الغاية القصوى منها كمن له حظ من علم ، فهو يظن أنّه عالم كامل ، أو كمن له نَسَبٌ مُعْرِقٌ فى ظَلَمَةٍ ، وتجدهم لم يكونوا أيضا رفعاء

=فيقولون : تمرجح من مرجحة ، وتمخرق من مخرقة ، وتمسخر من مسخرة ، وتمعدن من معدن ، وهكذا . وقد سأل المنصور بن أبى عامر فى مجلسه صاعداً البغدادى عن معنى كلمة « تمركل » ، وهى من عامية أهل قرطبة ، فدار صاعد حولها طبقا للقواعد ، ولكنه لم يصل إلى معناها . وفى ضوء هذا يمكن أن نقول إنّ « تَمرّك » مشتق من « مترَوك » ، والأصل الثلاثى لهذه هو « ترك » ، ومن معانى ترك : طرح ، وخلّى ، ونسى ، واحتقر ، وعزل ، ولم يعد يهتم بالأمر ، وكلها يمكن أن تهدى إلى المعنى الذى فى الجملة .

فى ظلمهم ، فتجده لو كان ابن فرعون ذى الأوتاد مازاد على إعجابه الذى فيه ، أوْله شىءٌ من فروسية ، فهو يُقدِّر أنه يهزم عليًّا(٢٧) ، ويأسر الزبيرَ(٢٨) ، ويقتل خالدا(٢٩) ، أوْ له شىء من جاهٍ رَذْلٍ فهو لا يرى الإسكندر على حال . أو يكون قويا على أنْ يكسب ما يتوفّر بيده مُوَيْل(٣٠) يفضل عن قوّته ، فلو أخذ بقرنى الشمس لم يزد على ما هو فيه .

وليس يكثرُ العجَبُ من هؤلاء ، وإن كانوا عَجَباً ، لكن مما لاحظّ له من علم أصلا ، ولا نسب ألبتة ، ولا مال ، ولا جاه ، ولا نجدة ، بل تراه فى كفالة غيره مهتضما لكل من له أدنى طاقة ، وهو يعلم أنه خال من

---

(٢٧) على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٢٨) الزبير بن العوام .

(٢٩) خالد بن الوليد .

(٣٠) مويل : تصغير مال .

ل ذلك ، وأنه لاحظ له فى شىء من ذلك ، ثم هو
م ذلك فى حالة المزهوّ التيّاه .

ولقد تسبّبتُ إلى سؤال بعضهم فى رفق ولين عن
سبب علوٍّ نفسه ، واحتقاره الناس ، فما وجدت عنده
زيدا على أن قال لى : أنا حرٌّ ، لستُ عبدَ أحد .

فقلت له : أكثر من تراه يشاركك فى هذه
لفضيلة ، فهم أحرار مثلك ، إلا قوماً من العبيد هم
أطول منك يدًا ، وأمرهم نافذ عليك ، وعلى كثير من
الأحرار ، فلم أجد عنده زيادة ، فرجعتُ إلى تفتيش
أحوالهم ومراعاتها ، ففكَّرتُ فى ذلك سنين لأعلم
السبب الباعث لهم على هذا العُجْبِ الذى لا سبب
له ، فلم أزل أختبر ما تنطوى عليه نفوسهم بما يبدو من
أحوالهم ، ومن مراميهم فى كلامهم ، فاستقرّ أمرُهم
على أنهم يُقَدِّرون أن عندهم فضل عقل ، وتَمَيُّز رأىٍ

أصيل ، لو أمكنتهم الأيام من تصريفه لوجدوا فيه متسعا ، ولأداروا الممالك الرفيعة ، ولبان فضلهم على سائر الناس ، ولو ملكوا مالاً لأحسنوا تصريفه ، فمن ها هنا تسرّب التيه إليهم ، وسرى العجب فيهم ، وهذا مكان فيه للكلام شَعْبٌ عجيب ، ومعارضة معترضة ، وهو أنه ليس شىءٌ من الفضائل كلّما كان المرء منه أعرى قَوِىَ ظنُّه فى أنه قد استولى عليه ، واستمرّ يقينه فى أنّه قد كَمُلَ فيه إلاّ العقل والتمييز ، حتى أنك تجد المجنونَ المُطْبِقَ ، والسكرانَ الطافح ، يسخران بالصحيح ، والجاهلَ الناقصَ يهزأ بالحكماء وأفاضلِ العلماء ، والصبيانَ الصغارَ يتهكّمون بالكهول ، والسفهاءَ العيّارين (٣١) يستخفون بالعقلاء المتصاونين ، وضعفةَ النساءِ يستنقصن عقولَ أكابرَ الرجال وآراءَهم .

---

(٣١) العيارين : جمع عيار ، وهو الرجل الذى يخلى نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها .

وبالجملة فكلما نقص العقلُ توهَّم صاحبه أنّه أوفر الناس عقلاً ، وأكملُ تمييزا ، ولا يعرض هذا فى سائر الفضائل ، فإن العارى منها جملة يدرى أنه عارٍ منها ، وإنما يدخل الغلط على من له أدنى حظٍّ منها ، وإنْ قلّ ، فإنه يتوهّم حينئذ ، إنْ كان ضعيف التمييز ، أنّه عالى الدرجة فيه ، ودواء مَن ذكرنا الفقر والخمول ، فلا دواء لهم أنجع منه ، وإلاّ فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدا ، فلا تجدهم إلاّ عيّابين للناس ، وقّاعين فى الأعراض ، مستهزئين بالجميع ، مجانبين للحقائق ، مكبِّين على الفضول ، وربّما كانوا مع ذلك متعرضين للمشاتمة والمهارشة ، وربّما قصدوا الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم .

وقد يكون العُجْبُ كمينا فى المرء ، حتى إذا حصل على أدنى مال أو جاه ظهر ذلك عليه ، وعجز عقله عن

قَمْعِهِ وسَتْره .

ومن ظريف ما رأيتُ فى بعض أهل الضعف أنّ منهم مَن يغلبه ما يضمر مِن محبَّةِ ولده الصغير وامرأته ، حتّى يصفها بالعقل فى المحافل ، وحتّى أنّه يقول : هى أعقل منى ، وأنا أتبرك بوصيتها . وأمّا مَلْحُهُ إيّاها بالجمال والحسن والعافية فكثير فى أهل الضعف جدا ، حتّى كأنه لو كان خاطِبها مازاد على ما يقول فى ترغيب السامع فى وصفها ، ولا يكون هذا إلاّ فى ضعيف العقل ، عار من العُجْبِ بنفسه .

إيَّاكَ والامتداح ، فإنّ كل من يسمعك لا يصدقك ، وإنْ كنتَ صادقا ، بل يجعل ما سمع منك مِن ذلك فى أول معايبك .

وإيّاكَ ومدحَ أحدٍ فى وجهه ، فإنّه فِعْلُ أهل المَلَق وضَعةِ النفوس .

وإيّاكَ وذمَّ أحدٍ لا بحضرته ولا فى مغيبه ، فلكَ فى إصلاحِ نفسك شَغْل .

وإيّاكَ والتفاقُرَ(٣٢) ، فإنّك لا تحصل من ذلك إلاّ على تكذيبك ، أو احتقار من يسمعك ، ولا منفعة لك فى ذلك أصلا إلاّ كُفْر نعمة ربك تعالى ، أو شكواه إلى من لا يرحمك .

وإياكَ ووصفَ نفسك باليسار ، فإنك لا تزيد على إطماع السامع فيما عندك ، ولا تزد على شكر الله تعالى ، وذِكْرِ فقرك إليه ، وغناك عمن دونه ، فإن هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما عندك .

العاقل هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزه .

مَن سبَّبَ للناسِ الطمعَ فيما عنده لم يحصل إلاّ على أن يبذله لهم ولا غاية لهذا ، أو يمنعهم فيَلُومُ

(٣٢) التفاقر : ادعاء الفقر

ويعادونه ، فإذا أردتَ أن تعطى أحداً شيئاً فليكن ذلك منك قبل أن يسألك ، فهو أكرمُ وأنْزَهُ ، وأوجب للحمد .

مِن بديع ما يقع فى الحسد قَوْلُ الحاسد إذا سمع إنساناً يُغْرب فى علمٍ مّا : هذا شئٌ بارد ، لم يتقدّم إليه ولا قاله قبله أحد ، فإنْ سمع مَن يُبيِّن ما قد قاله غيرُه قال : هذا بارد ، وقد قيل قبله ، وهذه طائفةُ سَوْءٍ قد نصبت أنفسها للقعود على طريق العِلْمِ ، يصدّون الناسَ عنها ، ليكثُر نظراؤهم من الجهال .

الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع ، بل يظنه خبيثا مثله .

وقد شاهدت أقواما ذوى طبائع رديّة ، وقد تصوَّرَ فى أنفسهم الخبيثة أنّ الناس كلهم على مثل طبائعهم ، لا يُصدِّقون أصلاً بأنّ أحداً هو سالمٌ من رذائلهم بوجه

من الوجوه ، وهذا أسوأ ما يكون من فساد الطبع ، والبعد عن الفضل والخير ، ومن كانت هذه صفته لا ترجى لها معافاة أبدا ، وبالله تعالى التوفيق .

العدلُ حصنٌ يلجأ إليه كل خائف ، وذلك أنّك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل ، وأنكر الظلمَ حينئذ وذمَّه ، ولا ترى أحداً يذمّ العدل ، فمن كان العدل فى طبعه فهو ساكن فى ذلك الحصن الحصين .

الاستهانةُ نوعٌ من أنواع الخيانة ، إذ قد يخونك من لا يستهين بك ، ومن استهان بك فقد خانك الإنصاف ، فكل مستهين خائن ، وليس كل خائن مستهينا .

الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع .

حالان يَحْسُنُ فيهما ما يقبح فى غيرهما ، وهما :

المعاتبة والاعتذار ، فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادى ، وذِكْرُ الإحسان ، وذلك غاية القبح فى ماعدا هاتين الحالتين.

لا عيْبَ على مَن مال بطبعه إلى بعض القبائح ، ولو أنّه أشدُّ العيوب ، وأعظم الرذائل ، ما لم يظهره بقوْلٍ أو فعل ، بل يكاد يكون أحمدُ ممن أعانه طبعه على الفضائل ، ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد إلاّ عن قوّة عقل فاضل .

الخيانة فى الحُرُمِ أشدُّ من الخيانة فى الدماء .
العِرْضُ أعزُّ على الكريم من المال .

ينبغى للكريم أن يصون جسمه بماله ، ويصون نفسه بجسمه ، ويصون عِرْضَه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون بدينه شيئاً أبدا .

الخيانةُ فى الأعراضِ أخفُّ من الخيانة فى الأموال ، وبرهان ذلك أنه لا يكاد يوجد من لا يخون فى

العرض ، وإنّ قلّ ذلك منه ، وكان مِن أهل الفضل . وأمّا الخيانة فى الأموال وإنْ قلّتْ أو كَثُرتْ فلا تكون إلاّ مِن رَذْلٍ بعيدٍ عن الفضل .

القياسُ فى أحوال الناس قد يكذب فى أكثر الأمور ، ويبطل فى الأغلب ، واستعمال ما هذه صفته فى الدين لا يجوز(٣٣) .

المقلِّدُ راضٍ أنْ يُغْبَن عقله ، ولعلّه مع ذلك يستعظم أن يُغْبَن فى ماله ، فيخطىء فى الوجهين معاً(٣٤) .

---

(٣٣) يرفض المذهب الظاهرى ، وعلى رأسه ابن حزم ، مبدأ القياس فى التشريع ، ويرى ابن حزم : « إن الله تعالى أنزل الشرائع فما أمر به فهو واجب ، وما نهى عنه فهو حرام ، وما لم يأمر به ولم ينه عنه فهو مباح مطلق حلال ، والنصوص جاءت بكل ما هو محرم ، وجاءت بكل ما هو مأمور به ، والباقى على أصل الإباحة ، فمن أوجب من بعد ذلك شيئاً بقياس أو بغيره ، فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى ، ومن حرم من غير النص ، فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى » .

● ابن حزم : الإحكام فى أصول الأحكام ، ج ٧ ص ٥٦ .

(٣٤) تعرض هذه الفقرة للتقليد ، وابن حزم يرفضه فقهياً بقوة وحسم ، ويقول : =

لا يكره الغبنَ فى ماله ، ويستعظمه إلاّ لئيم الطبع ، دقيق الهمة ، مهين النفس .

مَن جَهِلَ الفضائلَ فليعتمدْ على ما أمره الله ورسوله ﷺ ، فإنه يحتوى على جميع الفضائل .

رُبَّ مَخُوفٍ كان التحرزُ منه سببُ وقوعه .

وربَّ سرٍّ كانت المبالغة فى طيه سببُ انتشاره .

وربَّ إعراضٍ أبلغُ فى الاسترابة من إدامة النظر .

وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال .

الفضيلة وسطٌ بين الإفراط والتفريط ، فكلا الطرفين مذموم ، والفضيلة بينهما محمودة ، حاشا العقل فإنّه لا إفراط فيه (٣٥) .

= « التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان » .

● محمد أبو زهرة : « ابن حزم ، حياته وعصره ، آراؤه الفقهية ، ص ٣٠٢ .

(٣٥) تلتقى هذه الفقرة مع للمقولة المشهورة عن أرسطو من أن « الفضيلة وسط بين رذيلتين » .

الخطأُ فى الحزم خيرٌ من الخطأ فى التضييع .

مِن العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة ، والرذائل مستقبحة ومستخفّة .

من أراد الإنصافَ فليتوهم نفسَه مكان خصمه ، فإنه يلوح له وجه تعسّفه .

حدُّ الحزم معرفة الصديق من العدوّ ، وغاية الخرقِ والضعفِ جهلُ العدوّ من الصديق .

لا تُسْلِم عدوّك لظُلْمٍ ولا تظلمه ، وساو فى ذلك بينه وبين الصديق ، وتَحفَّظْ منه ، وإيَّاك وتقريبه وإعلاء قدره ، فإنّ هذا من فعل النَّوْكى .

مَن ساوى بين عدوّه وصديقه فى التقريب والرفعة ، فلم يَزد على أنْ زهّد الناسَ فى مودّته ، وسهّل عليهم عداوته ، ولم يزد على استخفاف عدوِّه له ، وتمكُّنه مِن مقاتله ، وإفساد صديقه على نفسه ،

وإلحاقه بجملة أعدائه .

غايةُ الخيرِ أنْ يسلم عدوُّك من ظلمك ، ومِن تَرْكك إيّاه للظلم ، وأمّا تقريبه فمن شِيَمِ النوْكى الذين قد قرب منهم التلف .

وغايةُ الشرِّ أنْ يسلم صديقك من ظلمك ، وأمّا إبعاده فمن فِعْلِ مَن لا عقل له ، ومن كُتِبَ عليه الشقاء .

ليس الحِلْمُ تقريبَ الأعداء ، ولكن مسالمتهم مع التحفُّظ منهم .

كم رأينا من فاخر بما عنده من المتاع كان ذلك سببا لهلاكه ، فإيّاكَ وهذا الباب الذى هو ضُرٌّ محض ، لا منفعة فيه أصلا .

كم شاهدنا ممن أهلكه كلامه ، ولم نر أحداً قط ، ولا بلغنا ، أنّه أهلكه سكوته ، فلا تتكلم إلاّ بما يقرِّبك

من خالقك ، فإنْ خِفْتَ ظالما فاسكت .

قلَّما رأيتُ أمراً أُمكِنَ ، فَضُيِّعَ ، إلاّ فات فلم يمكن بعد .

مِحَنُ الإنسان فى دهره كثيرة ، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس .

داءُ الإنسانِ بالناس أعظمُ من دائه بالسباع الكَلِبَة ، والأفاعى الضارية ، لأنّ التحفُّظ من كل ما ذكرنا ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلاً .

الغالبُ على الناس النفاق ، ومن العَجَب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلاَّ مَن نافقهم .

لو قال قائل : إنّ فى الطبائع كُرِّيّة ، لأنَّ أطراف الأضداد تلتقى ، لم يَبْعُد من الصدق . وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى ، فنجد المرء يبكى من الفرح ومن الحزن ، ونجد فرط المودة يلتقى مع فرط البغضة فى تتبع

العثرات ، وقد يكون ذلك سببا للقطيعة عند عدم الصبر والإنصاف .

كلُّ مَن غلبتْ عليه طبيعةٌ مّا ، فإنّه — وإنْ بلغ الغايةَ من الحزم والحذر — مصروع إذا كُويِدَ من قِبَلِها .

كثرةُ الرِّيَبِ تُعَلِّم صاحبَها الكذب ، لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب ، فيضرى عليه ويستسهله .

أعْدلُ الشهودِ على المطبوع على الصدق وَجْهُهُ ، لظهور الاسترابة عليه إنْ وقع فى كِذْبَة أو هَمَّ بها ، وأعْدلُ الشهودِ على الكذّاب لسانه ، لاضطرابه ، ونَقْض بعض كلامه بَعضا .

المصيبةُ فى الصديق الناكث أعظمُ من المصيبة به .

أشدُّ الناسِ استعظاماً للعيوب بلسانه هو أشدُّهم استسهالاً لها بفعله ، ويتَبَيَّنُ ذلك فى مُسافهات أهل

البذاء ، ومشاتمات الأرذال البالغين غاية الرذالة ، من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء ، كأهْلِ التعيُّشِ بالزمْر ، وكنْسِ الحشوش(٣٦) ، والخادمين فى المجازر ، وكساكنى دور الجُمَل(٣٧) المباحة لكراء الجماعات ، والسّاسة للدواب ، فإنّ كل من ذكرنا أشد الخلق رميا من بعضهم لبعض بالقبائح ، وأكثرهم عيبا بالفضائح ، وهم أوغل الناس فيها ، وأشهرهم بها .

اللقاءُ يذهبُ بالسخائم ، فكأن نَظَرَ العينِ للعين يصلح القلوب ، فلا يسوءك التقاء صديقك بعدوِّك ، فإنّ ذلك يُفتر أمره عنده .

---

(٣٦) الحشوش : جمع حش ، ويريد به هنا الكنيف .

(٣٧) دور الجمل : بيوت البغاء العامة ، ويعلق أسين بلاثيوس فى ترجمته للكتاب على هذه الفقرة بأنها الشاهد الوحيد الذى لدينا على وجود مثل هذه الدور فى قرطبة .

والحق أن ابن عذارى عرض للأمر ، ويسميها « دار البنات » ، ولدينا إشارات أخرى على أن الدولة كانت تتقاضى ضرائب من العاملات فى هذه المهنة ، وأن الواحدة منهن كانت تسمى فى لهجة الأندلس « خراجية » ، وكان يطلق على بيوت الدعارة نفسها : « دار الخراج » .

● د . الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم ، ص ٤٩ .

أشدُّ الأشياء على الناس الخوفُ والهمُّ والمرض والفقر ، وأشدُّها كلها إيلاما للنفس الهمُّ ، للفَقْدِ من المحبوب ، وتوقُّع المكروه ، ثم المرض ، ثم الخوف ، ثم الفقر. ودليل ذلك أنّ الفقر يُستعجل ليُطرد به الخوف ، فيبذل المرء ماله كله ليأمن . والخوف والفقر يُستعجلان ليطرد بهما ألم المرض ، فيغرِّر الإنسان فى طلب الصحة ، ويبذل ماله فيها إذا أشفق من الموت ، ويودُّ عند تيقُّنه به لو بذل ماله كلُّه ويسلم ويفيق . والخوف يُستَسْهَل ليطرد به الهمّ ، فيغرِّر المرء بنفسه ليطرد عنها الهمَّ ، وأشدُّ الأمراضِ كلها ألماً وجعٌ ملازمٌ فى عضوٍ ما بعينه . وأمّا النفوس الكريمة فالذى عندها أشدُّ من كل ما ذكرنا ، وهو أسهل المخوِّفات عند ذوى النفوس اللئيمة .

ومما قلته فى الأخلاق :

إنَّما العقلُ أساسٌ فوقه الأخلاقُ سورُ
فحلّى العقلَ بالعلمِ وإلاّ فهوبورُ (٣٨)
جاهلُ الأشياءِ أعمى لا يرى كيف يدور
وتمامُ العلمِ بالعدلِ وإلاّ فهو زور
وزمامُ العدلِ بالجودِ وإلاّ فيجور
وملاكُ الجودِ بالنجدةِ والجبنُ غرور
عِفَّ إنْ كنتَ غيورا ، مازنى قط غيور
وكمالُ الكلِّ بالتقوى وقوْلُ الحق نور
ذى أصول الفضل عنها حَدَثَتْ بعدُ البذور

ومما قلته أيضا :

زمامُ أصولِ جميع الفضائل
عدْلٌ وفهمٌ وجودٌ وباسُ

---

(٣٨) بور : فاسد لا خير فيه .

فمن هذه رُكِّبَتْ غيرُها
فمن حازها فهو فى الناس راس
كذا الرأس فيه الأمور التى
بإحساسها يُكْشَفُ الالتباس

١٠

فصل فى غرائب أخلاق النفس

ينبغى للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكى المتظلم ، وتشكّيه ، وشدّة تلوّيه ، وتقلّبه وبكائه ، فقد وقفتُ من بعض من يفعلُ هذا ، وأنا على يقين أنّه الظالم المعتدى المفرط الظلم . ورأيتُ بعض المظلومين ساكن الكلام ، معدوم التشكّى ، مظهرا لقلة المبالاة ، فيسبق إلى نفس من لا يحقق النظر أنه ظالم ، وهذا مكان ينبغى التثبّت فيه ، ومغالبة ميل النفس جملة ، وأن لا يميل المرء مع الصفة التى ذكرنا ولا عليها ، ولكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء .

من عجائب الأخلاق أنّ الغفلة مذمومة ، وأن استعمالها محمود ، وإنما ذلك لأن من هو مطبوع على الغفلة يستعملها فى غير موضعها ، وفى حيث يجب التحفظ ، وهو مُغَيَّبٌ عن فهم الحقيقة ، فدخلت تحت الجهلِ ، فَذُمَّتْ لذلك . وأمّا المتيقِّظُ الطبع فإنه لا يضع الغفلة إلا فى موضعها الذى يُذَمُّ فيه البحث والتقصِّى ، والتغافُل فهماً للحقيقة ، وإضراباً عن الطيش ، واستعمالا للحِلْم ، وتسكينا للمكروه ، فلذلك حُمِدَتْ حالةُ التغافل وذُمَّتْ الغفلة .

وكذلك القولُ فى إظهارِ الجزعِ وإبطانه ، وفى إظهار الصبر وإبطانه ، فإنّ إظهار الجزع عند حلول المصائب مذموم لأنّ مُظْهِرَه عجز عن مِلْكِ نفسه ، فأظهر أمرا لا فائدة فيه ، بل هو مذموم فى الشريعة ، وقاطعٌ عما يلزم من الأعمال ، وعن التأهُّب لما يُتَوَقَّع

خلوله ، ممَّا لعلّه أشنع من الأمر الواقع الذى عنه حدث الجَزَعُ ، فلمّا كان إظهار الجزع مذموماً كان إظهار ضده محمودا ، وهو إظهار الصبر ، لأنّه مِلْكٌ للنفس ، واطّراح لما لا فائدة فيه ، وإقبالٌ على ما يعود وينتفع به فى الحال وفى المستأنف . وأما استبطان الصبر فمذموم ، لأنّه ضعفٌ فى الحسّ ، وقسوةٌ فى النفس ، وقلّةُ رحمة ، وهذه أخلاق سوءٍ لا تكون إلاّ فى أهل الشر وخبثِ الطبيعة ، وفى النفوس السبْعِيَّة[1] الرديَّة .

فلمـا كان ما ذكرنا يَقْبحُ كان ضدُّه محمودا ، وهو استبطان الجزع ، لما فى ذلك من الرحمة والشفقة والفهم بقدْرِ الرزيَّة ، فصحّ بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء جزوعَ النفس ، صبور الجسد ، بمعنى أنّه

---

(١) السبعية : نسبة إلى السبع ، وهو كل ماله ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترسها ، كالأسد والذئب والنمر .

لا يظهر فى وجهه ولا فى جوارحه شىءٌ من دلائل الجزع .

ولو علم ذو الرأى الفاسد ما استضرّ به من فساد تدبيره فى السالف لأنجح بتركه استعماله فيما يستأنف ، وبالله التوفيق .

١١

فصل فى تطلّع النفس إلى ما يُستر عنها من كلام مسموع أو شىء مرئىٍ أو إلى المدح وبقاء الذكر

هذان أمران لا يكاد يسلم منهما أحدٌ إلاّ ساقط الهمّة جدا ، أو من راضَ نفسه الرياضة التامة ، وقمع قوة نفسه الغضبية قمعا كاملا ، أو عانى مداواة شَرَهِ النفس إلى سماع كلام تُستَرُّ به عنها ، أو رؤية شىء اكتتم به دونها أنْ يُفَكِّر فيما غاب عنها من هذا النوع فى غير موضعه الذى هو فيه ، بل فى أقطار الأرض المتباينة ، فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون تام الجنون ، عديم

العقل ألبتة ، وإن لم يهتمّ لذلك فهو هذا الذى اختُفِى به عنه إلاّ كسائر ما غاب عنه منه سواء بسواء ولا فرق .

ثُمَّ ، لتزد احتجاجاً على هواه فليقل بلسان عقله لنفسه : يا نفسُ ، أرأيت ، إنْ لم تعلمى ، أنّ ههنا شيئاً أُخْفِىَ عليك ، أكنتِ تَطَّلعين إلى معرفة ذلك أم لا ، فلابدَّ مِن لا ، فليقل لنفسه : فكونى الآن كما كنت تكونين ، لو لم تعلمى بأنّ ههنا شيئا سُتِرَ عنك ، فتربحى الراحةَ ، وطردَ الهمِّ ، وألَم القلق ، وقُبْحَ صفةِ الشرّ ، وتلك غنائم كثيرة ، وأرباح جليلة ، وأغراض فاضلة سنيّة ، يرغب العاقل فيها ، ولا يزهد فيها إلاّ تامُّ النقص .

وأمّا من علَق وهمُهُ وفكره بأن يَبْعُد اسمه فى البلاد ، ويبقى ذِكرُه على الدهر ، فليتفكرْ فى نفسه ، وليقل لها : يا نفسُ ، أرأيتِ لو ذكِرْتِ بأفضل الذكر

فى جميع أقطار المعمور ، أبد الأبد ، إلى انقضاء الدهر ، ثم لم يبلغنى ذلك ، ولا عرفتُ به ، أكان لى فى ذلك سرور أو غبطة أم لا ، فلابدّ من لا ، ولا سبيل إلى غيرها ألبتة ، فإذا صحّ وتيقن فليعلمْ يقينا أنّه إذا مات ولا سبيل له إلى عِلْم أنّه يُذكر أو أنّه لا يُذْكَر ، وكذلك إن كان حيًّا إذا لم يبلغه . ثم ليتفكرْ أيضا فى معنيين عظيميين : أحدهما كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولا ، الذين لم يَبْقَ لهم على أديم الأرض عند أحدٍ من الناس اسمٌ ولا رسم ، ولا ذكر ولا خبر ، ولا أثر بوجه من الوجوه . ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين ، والزهّاد ، ومن الفلاسفة ، والعلماء ، والأخيار ، وملوك الأمم الدائرة ، وبناة المدن الخالية ، وأتباع الملوك الذين أيضا قد انقطعت

أخبارهم ، ولم يبق لهم عند أحدٍ علمٌ ، ولا لأحدٍ بهم معرفة أصلاً ألبتة . فهل ضَرَّ من كان فاضلاً منهم ذلك ، أو نقص من فضائلهم ، أو طمس من محاسنهم ، أو حطَّ درجتَهم عند بارئهم عزّ وجلّ ؟ .

ومن جهل هذا الأمر فليعلم أنه ليس فى شىء من الدنيا خبرٌ عن ملوكٍ من ملوك الأجيال السالفة أبعدُ مما بأيدى الناس من تاريخ ملوك بنى إسرائيل فقط ، ثُمّ ما بأيدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس ، وكلّ ذلك لا يتجاوز ألفى عام ، فأين ذِكْر من عمّر الدنيا قبل هؤلاء ، أليس قد دَثَر ، وفنى ، وانقطع ، ونُسِىَ ألبتة ؟ . وكذلك قال الله تعالى : (ورُسُلاً لم نَقْصُصْهُمْ عليك من قبل)(١) ، وقال تعالى : (وقروناً بين ذلك كثيرا)(٢) ، وقال تعالى : (والذين من بعدهم

(١) سورة النساء : الآية ١٦٤ .　　(٢) سورة الفرقان : الآية ٣٨ .

لا يعلمهم إلاّ الله) [٣] ، فهل الإنسانُ وإنْ ذُكِرَ برهةً من الدهر إلاّ كمن خلا قبل من الأمم الغابرة ، الذين ذُكِروا ثم نُسوا جملة .

ثم ليتفكَّر الإنسانُ فى مَن ذُكِر بخير أو بِشرٍّ ، هل يزيده ذلك عند الله عزّ وجلّ درجةً أو يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيّام حياته ؟ . فإذا كان هذا كما قلناه فالرغبة فى الذكْرِ رغبةُ غرور ، ولا معنى له ، ولا فائدة فيه أصلا .

لكن ، إنّما ينبغى أن يرغب الإنسان العاقل فى الاستكثار من الفضائل وأعمال البرّ ، التى يستحق من هى فيه الذكرَ الجميل ، والثناءَ الحسن ، والمدحَ وحميد الصفة ، فهى التى تُقرِّبه من بارئه تعالى ، وتجعله مذكورا عنده عزّ وجلّ الذكْرَ الذى ينفعه ،

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٩ .

ويحصل على بقاء فائدته ، ولا يبيد أبد الأبد ، وبالله تعالى التوفيق .

شُكْرُ المنعم فرضٌ واجب ، وإنّما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن فأكثر ، ثم بالتهمّم بأموره ، والتأتى بِحُسْنِ الدفاع عنه ، ثم بالوفاء له حيًّا ومَيتا ، ولمن يتصل به من ساقةٍ(٤) وأهل كذلك ، ثم بالتمادى على ودّه ونصيحته ، ونَشْر محاسنه بالصدق ، وطىِّ مساويه مادمت حيًّا ، وتوريث ذلك عقبك وأهلَ ودِّك .

وليس من الشكر عَوْنُه على الآثام ، وتَرْكُ نصيحته فيما يُوتِغُ(٥) به دينه ودنياه ، بل مَن عاونَ مَن أَحْسَنَ إليه على باطل فقد غشّه ، وكفر إحسانه ، وظلمه وجحد إنعامه ، وأيضا فإنّ إحسان الله تعالى وإنعامه

---

(٤) الساقة : التابعون .

(٥) يوتغ : يفسد ويهلك .

على كل حال أعظم ، وأقدمُ ، وأهنأُ من نعمة كلِّ مُنْعِمٍ دونه عزّ وجلّ ، فهو تعالى الذى شقّ لنا الأبصار الناظِرة ، وفتق فينا الآذان السامعة ، ومنحنا الحواس الفاضلة ، ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا ، وسَخَّرَ لنا ما فى السموات وما فى الأرض من الكواكب والعناصر ، ولم يفضِّل علينا من خلقه شيئاً غير الملائكة المقدّسين ، الذين هم عُمَّار السموات فقط ، فأين تقع نِعَمُ المنعمين من هذه النِّعَم ؟ ، فمن قدَّر أنه يشكر محسنا إليه بمساعدته على باطل ، أو بمحاباته فيما لا يجوز ، فقد كفر نعمةَ أعظم المنعمين ، وجحد إحسانَ أجلَّ المحسنين إليه ، ولم يشكر وليَّ الشكر حقًّا ، ولا حمد أهل الحمد أصلاً ، وهو الله عزّ وجلّ .

ومَن حال بين المُحْسِنِ إليه وبين الباطل ، وأقامه

على مرِّ الحق ، فقد شكره حقًّا ، وأدَّى واجب حقه عليه مستوفى ، ولله الحمد أوَّلاً وآخرا ، وعلى كل حال .

١٢

فصل فى حضور مجالس العلم

إذا حضرتْ مجلسَ العلم فلا يكن حضورك إلاّ حضور مُستزيدٍ عِلْماً وأَجْراً ، لا حضور مُسْتَغْنٍ بما عندك ، طالباً عَثْرةً تشيعها ، أو غريبةً تشنعها ، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون فى العلم أبدا ، فإذا حضرْتَها على هذه النية ، فجلوسُكَ فى منزلك أَرْوَحُ لبدنك ، وأكرمُ لخلقك ، وأسلمُ لدينك .

فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزمْ أحدَ ثلاثة أوجهٍ لا رابع لها وهى :

إما أنْ تسكتَ سكوتَ الجهّال فتحصل على أجْر

النيّة فى المشاهدة ، وعلى الثناء عليك بقلة الفضول ، وعلى كرم المجالسة ، ومودَّة مَن تجالس .

فإن لم تفعل ذلك فاسئل سؤال المتعلم ، فتحصل على هذه الأربع محاسن ، وعلى خامسة ، وهى استزادة العلم .

وصفة سؤال المتعلم أن تسئل عمّا لا تدرى ، لا عمّا تدرى ، فإنّ السؤال عما تدريه سُخْف ، وقلَّة عقل ، وشغل لكلامك ، وقَطْع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك ، وربُّما أدَّى إلى اكتساب العداوات ، وهو بَعْد عَيْنُ الفضولِ ، فيجب عليك أن لا تكون فضوليا ، فإنَّها صفة سَوْءٍ ، فإنْ أجابك الذى سألتَ بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام ، وإنْ لم يُجِبْكَ بما فيه كفاية ، أو أجابك بما لم تفهم فقل له : لم أفهم ، واستزده ، فإن لم يزدْك بياناً وسكت ، أو أعاد عليك

الكلامَ الأوّل ولا مزيد ، فأمسكْ عنه ، وإلاّ حصلْتَ على الشرِّ والعداوة ، ولم تحصل على ما تريد من الزيادة .

والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العالم ، وصفة ذلك أنْ تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بيِّنا ، فإن لم يكن ذلك عندك ، ولم يكن عندك إلا تكرارُ قولك ، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة فأمسكْ ، فإنَّك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر ذلك ، ولا على تعليم ، ولا على تَعَلُّم ، بل على الغيظ لك ولخصمك ، والعداوة التى ربَّما أدّت إلى المضرات ، وإيَّاكَ وسؤالَ المُعْنِتِ ، ومراجعةَ المُكَابر ، الذى يطلب الغَلَبَة بغير عِلْم ، فهما خُلُقا سوءٍ ، دليلان على قِلَّة الدين ، وكثرة الفضول ، وضعف العقل ، وقوة السخف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وإذا ورد عليك خطابٌ بلسان ، أو هجمت على كلام فى كتاب ، فإيَّاك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة ، قبل أن تتبين بطلانه ببرهان قاطع . وأيضاً فلا تُقْبل عليه إقبالَ المصدِّق به ، المستحسِنُ إياه ، قبل علمك بصحته ببرهان قاطع ، فتظلم فى كلا الوجهين نفسَكَ ، وتبعد عن إدراك الحقيقة . ولكن ، أقبِلْ عليه إقبالَ سالمِ القلب عن النزاع عنه ، والنزوع إليه ، ولكن إقبال مَن يريد حظّ نفسه فى فهْمِ ما سمع ورأى ، فالتزيُّد به علماً ، وقبوله إنْ كان حسناً ، أوردّه إن كان خطأ ، فمضمونٌ لك ، إنْ فعلتَ ذلك ، الأجرُ الجزيل ، والحمدُ الكثير ، والفضلُ العميم .

مَن اكتفى بقليله عن كثير ما عندك فقد ساواك فى الغنى ، ولو أنك قارون ، حتى إذا تصاونَ فى الكسب عما تَشْرَه أنت إليه ، فقد حصل أغنى منك بكثير .

ومَن ترفّع عما تخضع إليه من أمور الدنيا فهو أعزُّ منك بكثير.

فُرِضَ على النّاس تَعَلُّم الخير، والعمل به، فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معا، ومَن علمه ولم يعمل به فقد أحسن فى التعليم، وأساء فى تَرْك العمل به، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئا، وهو خيرٌ من آخر لم يعلمه، ولم يعمل به، وهذا الذى لا خيرَ فيه أَمْثَلُ حالاً، وأقلُّ ذماًّ، مِن آخر ينهى عن تعلُّم الخير، ويصدُّ عنه.

ولو لم يَنْهَ عن الشرِّ إلاّ من ليس فيه منه شىء، ولا أمر بالخير إلاّ من استوعبه، لما نُهِيَ أحدٌ عن شرّ، ولا أُمِر بخير، بعد النبى ﷺ، وحسبك بمن أدّى رأْيه إلى هذا فسادا وسوءَ طبعٍ، وذمَّ حالٍ، وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو **محمد** رضى الله عنه:

فاعترض ها هنا إنسان ، فقال : كان الحسن رضى الله عنه إذا نهى عن شىءٍ لا يأتيه أصلا ، وإذا أمر بشىءٍ كان شديدَ الأخذِ به ، وهكذا تكون الحكمة . وقد قيل : أقْبَحُ شىء فى العالِمِ أنْ يأمر بشىءٍ لا يأخذ به فى نفسه ، أو ينهى عن شىء يستعمله .

قال أبو **محمد** :

كَذَبَ قائلُ هذا ، وأقَبحُ منه من لم يأمر بخير ولا نهى عن شرّ ، وهو مع ذلك يعمل الشرَّ ولا يعملُ الخير .

قال أبو **محمد** :

وقد قال أبو الأسود الدؤلى :

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتىَ مثلَهُ
عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

وأبدأْ بنفسكَ فانْهَهَا عن غَيِّها
فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيم
فهناك يُقْبَل إنْ وَعَظْتَ ويُقْتدى
بالعلم منك ، وينفع التعليمُ

قال أبو محمد :

إنّ أبا الأسود إنما قصد بالإنكار المجيء بما نهى عنه المرء ، وأنّه يتضاعف قبحُهُ منه مع نَهْيِهِ عنه ، فقد أحسنَ كما قال الله تعالى : (أتأمرونَ الناسَ بالبِرِّ وتنسون أنفسكم)[1] ، ولا يُظَنُّ بأبي الأسود إلاّ هذا . وإمَّا أنْ يكون نَهَى عن النَّهْيِ عن الخلق المذموم ، فنحن نعيذه بالله من هذا ، فهو فعل من لا خير فيه . وقد صحَّ عن الحسن أنه سمع إنساناً يقول : لا يجب أنْ يَنْهى عن الشرِّ إلا من لا يفعله ، فقال الحسن : ودَّ إبليسُ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٤ .

لو ظفر منّا بهذه ، حتى لا ينهى أحدٌ عن منكر ، ولا يأمر بمعروف ! .

وقال أبو محمد :

صدَق الحسنُ ، وهو قوْلنا آنفا . جعلنا الله ممن يُوَفَّق ليفِعْلِ الخيْرِ والعمل به ، وممن يبصر رُشْدَ نفسه ، فما أحدٌ إلاّ له عيوبٌ إذا نظرها شغَلَتْه عن غيره ، وتوفّانا على سنَّة محمد ﷺ ، آمين ، رب العالمين .

* * *

كشاف عام

بالأعلام الواردة فى نص الكتاب

فهرس تحليلى لمادة الكتاب

● الترتيب أبجدى حسب هيئة الكلمة ، دون نظر إلى أصلها الثلاثى ، ودون أن نأخذ فى الاعتبار أداة التعريف.

(ط)

(ظ)

(ع)

محتوى الكتاب

الموضوع	صفحة

المؤلِّف :

ابن حزم شاهد عصر

الكتاب :

• نص الكتاب :

الموضوع	صفحة

كتب أخرى للمؤلف

- **امرؤ القيس : حياته وشعره .**

الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ م .

- **دراسة فى مصادر الأدب .**

الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- **مع شعراء الأندلس والمتنبى .**

ترجمة كتاب غرسية غومث ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

- **بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال .**

دار روزاليوسف ، ١٩٧٤ (نقد) .

- **طوق الحمامة ، لابن حزم (تحقيق) .**

الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

- **القصة القصيرة : دراسة ومختارات .**

الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

- **الشعر العربى المعاصر : روائعه ومدخل لقراءته .**

دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- **دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة .**

دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- **الحضارة العربية فى أسبانيا .**

ترجمة لكتاب ليفى بروقنسال ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- **ملحمة السيدة دراسة مقارنة .**

  الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .

- **الفن العربى فى أسبانيا وصقلية**

  ترجمة لكتاب المستشرق الألمانى فون شاك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠

- **التربية الإسلامية فى الأندلس.**

  ترجمة لكتاب خوليان ريبيرا ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

- **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة .**

  الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

رقم الإيداع		١٩٨١/٤٣٢٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٥١-١٩-٤	ISBN

٣/٨١/٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





م ٢٠٠